مستلة
من مجلة كلية أصول الدين والدعوة بالمنصورة

كرامات الأولياء بين المؤيدين والمعارضين

الدكتور/ عبد العزيز عبد اللطيف المرشدى
الأستاذ المساعد بكلية أصول الدين والدعوة بالمنصورة
جامعة الأزهر

شعبان ١٤١٧هـ - يناير ١٩٩٧م

مقدمة

الحمد لله رب العالمين القادر على جميع الممكنات ، العالم بجميع المعلومات ، الذى أرسل رسله الى الخلق وأيدهم بالمعجزات ، وأكرم أولياؤه الذين ساروا على دربهم - بالكرامات - اللهم صلى وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ...

وبعد ،،،،

فإن موضوع كرامات الأولياء من الموضوعات التى ناقشها العلماء قديماً وحديثاً ، ووقف فيها علماء المسلمين بين منكر ومؤيد ، وكان لكلا الفريقين أقواله التى عبر فيها عن آرائه .

والحق أن موضوع الكرامات قد طفى على سطح الحياة الآن بعد أن ظهرت طائفة تدعى علم الغيب وشفاء العلل ، وعلاج الأمراض وطرد الجان من جسم الإنسان ، فإذا سألتهم عن ذلك قالوا أنها كرامة ، حتى أن أحدهم أطلق عليه قاهر العفاريت .

وذلك الأمر ناشىء من الخلط بين الكرامة والسحر والشعوذة والإستدراج كما أن البعض الآن إذا رأى أمراً من هذه الأمور قالوا معجزة فهناك اذاً خلط فى المفاهيم .

هذا فى الوقت الذى نجد البعض ينكر وقوع هذه الأمور جملة وتفصيلاً حتى أنه إذا وقع أمر خارق للعادة قالوا إن ذلك من شذوذ الطبيعة وكلا الفريقين على خطأ ، فإن الكرامة كأمر خارق للعادة تفترق عن المعجزة التى لا تكون إلا للأنبياء وعن السحر الذى لا يقع إلا على يد الأشقياء وكذا المعونة التى لا تكون إلا للدهماء ، وكذا الإستدراج الذى لا يكون إلا للأغبياء أما الكرامة فليست إلا للأولياء .

ثم إن هذه الكرامة لا تقدح فى النبوة ، بل تزيد فى قدرها لأن نجاح التلميذ نجاح لأستاذه ، ولهذا فإن المحققين من العلماء قد قالوا أن كرامة أى ولى هى معجزة لنبيه .

كما أنه من المفروض أن نفرق بين الكرامة وبين أعمال السحر ، إذ السحر لا يعدو أن يكون تخييلاً للعين وليس له حقيقة ويمكن تعلمه بخلاف الكرامة .

والإيمان بالأمور الخارقة للعادة له فوائد منها : أن يوقن الإنسان بطلاقة قدرة الله على الكون ، ومنها : أن يعرف الإنسان ان الله لن يتخلى عن أوليائه الذين خرقوا العادة مع الله حيث عبدوه فوق ما إفترض عليهم فخرق الله لهم العادات أيضاً .

ثم أن الإيمان بكرامات الأولياء هو تصديق بمعجزات الأنبياء .

وفى هذا البحث محاولة متواضعة لبيان ذلك حيث أوضحت فيه تعريف الكرامة ودليل امكانها مع توضيح أدلة الوقوع اقتصرت فيها على الأدلة الصحيحة من الكتاب والسنة وآثار الصحابة.

ثم بينت الفرق بين الكرامة والمعجزة والسحر والإستدراج ، وأوضحت أقوال العلماء فى هل الكرامة شرط الولاية أم لا ؟

وفى الفصل الثانى أوضحت مذاهب المسلمين فى الكرامة وذكرت :

أولاً : موقف المعارضين لوقوعها وهم الفلاسفة والمعتزلة والظاهرية .

ثانياً : ذكرت موقف المؤيدين ابتدأت بالسلف وذلك لأنهم فى نظرى أقرب إلى الصحة فى هذا المجال ، ثم ذكرت موقف الأشاعرة .

وأخيراً : ذكرت رأى الصوفية فى هذا المجال .

أسأل الله عز وجل أن يهدى هذه الأمة الى سواء السبيل ، وأن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

دكتور / عبد العزيز عبد اللطيف الرشدى

الكرامة : تعريفها والدليل عليها

تعريف الكرامة

الكرامة إسم يوضع للإكرام كما وضعت الطاعة موضع الإطاعة [١] .

وهى فى الإصطلاح : أمر خارق للعادة يظهره الله على يد عبد صالح غير مقرون بدعوى .

وبهذا تمتاز عن المعجزة ، وبمقارنة الإعتقاد والعمل الصالح والتزام متابعة النبى عن الإستدراج والإهانة والسحر .

الأدلة على جواز الكرامة

إنها أمر ممكن فى ذاته بناءً على شمول قدرة الله لجميع الممكنات وكل من كان كذلك فهو جائز .

وهذا الدليل حجة على من ينكر الكرامة والمعجزة أيضاً .

أما من ينكر الكرامة فقط فيمكن أن نستدل بدلائل عقلية ونقلية .

الأدلة العقلية على جواز الكرامة

الدليل الأول : أن العبد الصالح ولى الله قال تعالى (ألا أن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) [٢] والرب ولى العبد قال تعالى (الله ولى الذن آمنوا) [٣] وقوله (وهو يتولى الصالحين) [٤] .

فثبت أن الرب ولى العبد والعبد ولى الرب ، وأيضاً الرب حبيب العبد والعبد حبيب الرب ، كما قال تعالى (يحبهم ويحبونه) [٥] .

إذا ثبت هذا نقول : العبد إذا بلغ فى الطاعة الى حيث يفعل كل ما أمره الله وكل ما فيه رضاه وترك كل ما نهى الله عنه وزجر عنه فكيف

---

(١) لسان العرب ج٥ ص ٣٨٦٢ .
(٢) سورة يونس الآية : ٦٢ .
(٣) سورة البقرة الآية : ٢٥٧ .
(٤) سورة الأعراف الآية : ١٩٦ .
(٥) سورة المائدة الآية : ٥٤ .

يبعد أن يفعل الرب الرحيم الكريم مرة واحدة ما يريده العبد ، بل هو أولى لأن العبد مع لؤمه وعجزه لما فعل كل مايريده الله ويأمره به فلأن يفعل الرب الرحيم مرة واحدة ما أراده العبد كان أولى [١] .

الدليل الثانى : لو امتنع إظهار الكرامة لكان ذلك إما لأجل أن الله ليس أهلاً لأن يفعل مثل هذا الفعل ، أو لأجل أن المؤمن ليس أهلاً لأن يعطيه الله هذه العطية والأول قدح فى قدرة الله وهو كفر .

والثانى : باطل فإن معرفة الله وصفاته وأفعاله وأحكامه وأسمائه ومحبة الله وطاعته والمواظبة على ذكره وتقديسه وتمجيده وتهليله أشرف من اعطاء رغيف واحد فى مفازه أو تسخير حية أو أسد .

الدليل الثالث : قال النبى صلىالله عليه وسلم حكاية عن رب العزة " ولا يزال عبدى يتقرب الى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يسعى بها فبى يسمع وبى يبصر وبى يبطش وبى يمشى .. الحديث " [٢] .

وهذا يدل على أنه لم يبق فى سمعهم ولا بصرهم ولا سائر أعضائهم نصيب لغير الله .

ولا شك أن هذا المقام أشرف من تسخير الحية والسبع واعطاء الرغيف أو عنقود عنب أو شربة ماء .

الدليل الرابع : قال عليه السلام حاكياً عن رب العزة : " من آذى لى ولياً فقد آذنته بالحرب " فجعل إيذاء الولى قائماً مقام إيذائه .

وهذا قريب من قوله (إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله) [٣] فجعل

---

(١) مفاتيح الغيب ج ١٠ ص ٢٥٦ . (٢) رواه البخارى كتاب الرقاق .

(٣) سورة الفتح الآية : ١٠ .

بيعة محمد صلى الله عليه وسلم بيعة مع الله ورضا محمد رضا الله وإيذاء محمد إيذاء الله فلا جرم كانت درجة محمد صلى الله عليه وسلم أعلى الدرجات الى أبلغ الغايات .

فكذا ههنا لما قال " من آذى لى ولياً فقد بارزنى بالمحاربة " دل ذلك على أنه تعالى جعل إيذاء الولى قائماً مقام إيذاء نفسه ، ويتأكد هذا بالخبر المشهور أنه تعالى يقول يوم القيامة مرضت فلم تعدنى . . . الحديث .

فدلت هذه الأخبار على أن أولياء الله يبلغون الى هذه الدرجات فأى بعد فى أن يعطيه الله كسرة خبز أو شربة ماء بدون أسباب [1] .

الدليل الخامس : أنا نشاهد فى العرف أن من خصه الملك بالخدمة الخاصة وأذن له فى الدخول عليه فى مجلس الأنس فقد يخصه أيضاً بأن يقدره على مالا يقدر عليه غيره ، بل العقل السليم يشهد بأنه متى حصل ذلك القرب فانه يتبعه هذه المناصب فجعل القرب أصلاً والمنصب تبعاً وأعظم الملوك هو رب العالمين ، فإذا شرف عبداً بأن أوصله الى عتبات خدمته ودرجات كرامته ، وأوقفه على أسرار معرفته ، ورفع حجب البعد بينه وبين نفسه وأجلسه على بساط قربه فإى بعد فى أن يظهر بعض تلك الكرامات فى هذا العالم مع أن كل هذا العالم بالنسبة الى ذرة من تلك السعادات الروحانية والمعارف الربانية كالعدم المحض .

هذه هى الأدلة العقلية على إمكان وجواز وقوع الكرامات للأولياء .

ولعل أهم دليل هو ما ذكره شارح المقاصد من أنها أمر ممكن فى ذاته كالمعجزة وشمول قدرة الله تعالى .

---

(١) جامع كرامات الأولياء جـ ١ صـ ٢٢ .

أما الأدلة العقلية التى ذكرها الرازى والنبهانى فإنها لم تصل فى قوتها مثل دليل الإمكان إلا أنه يمكن الإستئناس بها وأما خير شاهد على جواز الكرامة فهى دلائل الوقوع التى ذكرها الله عز وجل فى كتابه وأخبر بها الرسول محمد صلى الله عليه وسلم فى حديثه ، وما ورد عن الصحابة من وقوع هذا الأمر على أيديهم ، وما ذكره الإخباريون عن الأولياء.من وقوع خوارق على أيديهم ، مما لا يمكن معه الإنكار .

الأدلة القرآنية على وقوع الكرامة

مما لا شك فيه أن الأساس الذى يعتمد عليه المثبتون للكرامة هو القرآن الكريم ، والأدلة من القرآن الكريم على إثبات الكرامة كثيرة سوف نقتصر على بعضها .

أولاً : قصة مريم عليها السلام :

يقول الله تعالى (وكفلها زكريا كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً قال يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب) (١) .

ومن المعلوم أن شرط النبوة الذكورة فمريم إذاً ليست من الأنبياء حتى نقول أنها معجزة .

ولهذا إحتج أهل السنة على صحة القول بكرامة الأولياء بهذه الآية ووجه الإستدلال كما يقول الرازى :

أنه تعالى أخبر أن زكريا كلما دخل عليها المحراب وجد عندها رزقاً قال " يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله " .

فحصول الرزق عندها اما أن يكون خارقاً للعادة أو لا يكون ، وباطل أن يكون عادياً من خمسة أوجه (٢) :

---

(١) سورة آل عمران الآية : ٣٧ . (٢) مفاتيح الغيب ج٤ ص ١٨٩ طبعة دار الغد العربى.

الأول : أن على هذا لا يكون حصول الرزق عند مريم دليلاً على علو شأنها وشرف درجتها وإمتيازها عن سائر البشر .

الثانى : أنه قال بعد هذه الآية (هنالك دعا زكريا ربه قال ربى هب لى من لدنك ذرية طيبة) [١] والقرآن دل على أنه آيسا من الولد بسبب شيخوخته وشيخوخة زوجته فلما رأى إنخراق العادة فى حق مريم طمع فى حصول الولد فيستقيم قوله تعالى (هنالك دعا زكريا ربه) أما لو كان الذى شاهده فى حق مريم لم يكن خارقاً للعادة لم تكن مشاهدة ذلك سبباً فى طمعه فى إنخراق العادة بحصول الولد من المرأة العاقر .

الثالث : أن التنكير فى قوله تعالى (وجد عندها رزقاً) يدل على تعظيم حال ذلك الرزق كأنه قال : رزقاً ، أى رزق عجيب غريب ، وذلك إنما يفيد الغرض اللائق لسياق هذه الآية لو كان خارقاً للعادة .

الرابع : هو أنه تعالى قال : (وجعلناها وإبنها آية للعالمين)[٢] ولولا أنه ظهر عليهما من الخوارق لما صح ذلك .

الخامس : ما تواترت الروايات به أن زكريا عليه السلام كان يجد عندها فاكهه الشتاء فى الصيف وفاكهه الصيف فى الشتاء [٣] .

وربما يضاف الى تلك الحجج الخمس : أن الله أخبر أن زكريا عليه السلام هو الذى كفلها فهو الذى كان يأتى لها بالطعام والشراب والكسوة وسؤاله فى قوله (أنى لك هذا) يشير الى أنه لم يأت بهذا الطعام وهذا يدل على أن الله أتى بهذا الطعام من غير سبب .

وهذا الخارق كما قلنا لا يمكن أن يكون معجزة لمريم لأن المعجزة لا تكون إلا للأنبياء وشرط النبوة الذكورة كما قلنا .

---

(١) سورة آل عمران الآية : ٣٨ . (٣) أنظرمفاتيح الغيب للامام الرازى ج٤.

(٢) سورة الأنبياء الآية : ٩١ .

كما أن السياق يشير الى أن هذا الخارق لم يكن معجزة لزكريا لأسباب منها :

- أنه لو كان معجزة له لكان هو عالماً بحاله وشأنه فكان يجب أن لا يشتبه أمره عليه وأن لا يقول لمريم (أنى لك هذا) .
- ومنها أنه فى قول الله (هنالك دعا زكريا ربه) ما يشير الى أنه لما سألها عن أمر تلك الأشياء ، وذكرت له أن ذلك من عند الله هنالك طمع فى إنخراق العادة فى حصول الولد ، وهذا يدل على أن ما طمع فى هذا إلا بعد أخبار مريم .

وإذا ثبت أن هذا الخارق لم يكن معجزة لمريم ولا زكريا فلم يبقى إلا أن يكون ذلك كرامة لمريم .

وقد حاول المعتزله إثبات أن هذا الخارق كان معجزة لزكريا عليه السلام ذلك أنهم ينكرون كرامات الأولياء ، ذلك لأن الخارق فى نظرهم لا يكون إلا للأنبياء .

وقد بان لنا أن الذى حدث لمريم لم يكن معجزة لزكريا لأن من وقع على يديه المعجزة لابد وأن يكون عالماً بكيفية حصولها ، حتى يصح بها الإحتجاج والتحدى .

والمعتزلة أنفسهم يذكرون ذلك فى شروط المعجزة وعدم علم زكريا بذلك يشير الى أنها ليست معجزة له .

ومن كرامات الله لمريم ما أشار اليه القرآن فى قوله (وهزى اليك بجزع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا) [١] .

ويقول علماء : اللغة أن الجزع من النخلة هو الأسفل وما دون الرأس

---

(١) سورة مريم : ٢٥ .

وقيل كل خشبة فى أصل شجرة فهى جزع .
قيل كان ذلك فى وقت الشتاء والنخلة كانت يابسة .
ولكن سواء كان الوقت شتاء أم صيفاً ، وسواء كان الموجود من النخلة جزعها أم كلها فإنه على فرض أن بالنخلة رطب فإن الكرامة باقية أيضاً وهى أن المرأة وقت المخاض تكون أضعف وأهون ما تكون ، والشدة التى كانت فى مريم وقتها لتحريك نخلة هذه وحدها كافية لأن تكون كرامة .
فالحادثة ان قلبتها من أى ناحية وجدتها أمراً خارقاً للعادة لكن السؤال الذى يفرض نفسه لماذا قال الله لمريم وهى فى أضعف حالاتها (هزى اليك) مع أنها قبل ذلك وهى شابة (كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً) .
إن الأمر لا يخلو من حكمة : وهى أن الله عز وجل فى حالة مخاض مريم أراد أن يعلمنا كيفية إتخاذ الأسباب وأعمال الجوارح التى خلقها الله لنا ثم أن هذه الأسباب بجانب قدرة الله لا تأثير لها ، لهذا أمرها بإتخاذ الأسباب مع علمه بأن أسبابها لن تسقط الرطب .
فهو سبحانه يريد أن يعلمها وايانا أن نتخذ الأسباب ونترك نتائج ذلك على الله .

وهناك حكمة أخرى هى أن مريم فى بداية أمرها وهى فى المسجد أكرمها الله بغير أسباب منها فلما توطدت أقدامها فى العبادة ردها الله الى الأسباب .

وقد قلنا أن إستعمالها للأسباب لا ينفى أن تكون تلك الحادثة من الكرامات ، لأن اسقاط الرطب لا يكون بهزة امرأة فى حالة مخاض .
وقد قالت المعتزلة أن ذلك كان معجزة لزكريا وهذا باطل لأن زكريا عليه السلام ما كان له علم بحالها ومكانها .

ثانياً : قصة أصحاب الكهف :

وذلك فى قوله (أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا)[١] وفى هذه الأية يشير الله عز وجل أن هذه الآيات وإن كانت خارقة للعادة لكنها هينة عليه سبحانه إذ أنها أمر ممكن .

والدليل على أن قصة أهل الكهف من الأمور الخارقة للعادة أنهم لبثوا فى الكهف نائمين مدة ثلثمائة وتسع سنين ثم بعثهم الله عز وجل من رقادهم وهذا بلا شك أمر خارق للعادة ، وليس هناك ما يشير الى أنه كان بينهم نبى أو رسول حتى نقول : إنها معجزة لهذا النبى ، كما أنه من المستبعد ما قالته المعتزلة : أنه ربما تكون معجزة نبى معاصر لتلك الحادثة .

إذ أنه يلزم على ذلك أن يكون النبى الذى كان فى زمانهم تكون دعوته من بداية نومهم الى نهايته حت تكون الحجة قائمة له .

أما إذا قيل أن النبى كان وقت قيامهم نقول أن سياق الآيات لا يدل على ذلك ، كما أن القيام فى ذاته لا يعد اعجازاً ، وليس من المعقول أن يتحدى به الرسول ، فلم تبقى الا أن تكون كرامة للأولياء وإحساناً اليهم

ثالثاً : قصة صاحب سليمان :

من الناس من تمسك فى هذه المسألة بقوله تعالى (قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد اليك طرفك)[٢] .

وأغلب المفسرين أن الذى عنده علم من الكتاب[٣] آصف بن برخيا وهو من بنى إسرائيل وكان صديقا يحفظ إسم الله الأعظم الذى إذا

---

(١) سورة الكهف الآية : ٩ .

(٢) سورة النمل الآية : ٤٠ .

(٣) يؤيد الرازى هذا المذهب .

دعى به أجاب وقيل أن سليمان هو الذى عنده علماً من الكتاب وأنه هو الذى أتى بعرش بلقيس .

والأقرب الى الصحة أن الذى أتى بعرش بلقيس ليس سليمان لأنه لو كان سليمان مأموراً أن يأتى بالعرش فلماذا سأل الملأ ؟ ثم أن سياق الأية يشير الى أنه لما ارتد طرف سليمان اليه قال هذا من فضل ربى .

فالذى ارتد اليه طرفه – كما يشير سياق الآية – هو سليمان فلو كان سليمان هو القائل لكان اللائق أن يقول أنا آتيك به قبل أن يرتد الى طرفى فيتسق التحدى مع الآية . فإن قيل : أن سليمان قال لما رأى العرش هذا من فضل ربى ، وهذا يشير الى أنه هو صاحب الفعل .

قلنا : ما المانع أن يكون الإعتراف بالفضل ناشىء من كونه تلميذاً من تلاميذه ويقوم بهذا الأمر فهذا يشير الى نجاح دعوته ، ثم أن المجوزين للكرامة ذهبوا الى أن كرامة التابع هى أيضاً معجزة للمتبوع .

السنة وجواز الكرامة

إذا كان القرآن الكريم قد ذكر فى أكثر من موضوع جواز وقوع الكرامة فإن السنة النبوية شاهدة بجواز وقوع خوارق لغير الأنبياء ، والشواهد فى السنة كثيرة سوف نقتصر على بعضها خاصة من الأحاديث الصحيحة فى ذلك .

أولاً : قصة جريج العابد

فقد روى البخارى [1] عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : **لم يتكلم في المهد إلا ثلاث : عيسى بن مريم**

---

(١) رواه البخاري " كتاب الأنبياء " حديث ٣٤٣٦ .

عليه السلام ، وصبي في زمن جريج الناسك ، وصبى آخر .
وأما جريج : فكان رجلاً عابداً فى بنى إسرائيل وكانت له أم فكان يوماً يصلى إذ إشتاقت اليه أمه فقالت : يا جريج فقال : يا رب الصلاة خير أم رؤيتها ثم صلـى فدعتـه ثانيـا فقـال مثـل ذلـك حتـى قـال ثـلاث مرات وكان يصلى ويدعها فإشتد ذلك على أمه .
قالت : اللهم لا تمته حتى تريه المومسات – أى الزانيات – .
وكانت زانية هناك فقالت لهم : أنا أفتن جريجاً حتـى يزنـى فأتتـه فلـم تقدر على شيىء .
وكان هناك راعى يأوى بالليل الى أصل صومعته ، فلما أعياها راودت الراعى على نفسها فأتاها ، فولدت ، ثم قالت : ولـدى هـذا مـن جريـج فأتى بنوا إسرائيل وكسروا صومعته وشتموه فصلـى ودعـى ثـم نخـس الغلام ، قال أبو هريرة كأنى أنظر الى النبى صلى الله عليه وسلم حين قال بيده يا غلام من أبوك ؟ فقال : الراعى .
فندم القوم على ما كان منهم وإعتذروا إليه ، وقالوا نبنى صومعته من ذهب أو فضة فأبى عليهم ، وبناها كما كانت .
وأما الصبى الآخر فإن إمرأة كان معها صبى لهـا ترضعـه إذ مـر بهـا شاب جميل ذو شارة حسنة فقالت : اللهم إجعل إبنـى مثـل هـذا ، فقـال الصبى : اللهم لا تجعلنى مثله ، ثم مرت بها إمرأة ذكروا أنهـا سـرقت وزنت وعوقبت فقالت : اللهم لا تجعل إبنى مثل هذه .
فقال الصبى : اللهم إجعلنـى مثلهـا فقـالت لـه أمـه فـى ذلـك فقـال : إن الشاب كان جباراً من الجبابرة فكرهت أن أكـون مثلـه ، وإن هـذه قيـل أنها زنت ولم تزن ، وقيل أنها سرقت ولم تسرق ، وهى تقول حسبى الله [1] .

---

(١) رواه البخارى . كتاب الأنبياء . حديث ٣٤٣٦ .

وهذا يثير الى وقوع الكرامة من الله لأوليائه كما حدث لجريج العابد والرسول لم يشر الى أنه نبى بل قال عابد وناسك [١] .

وكذا أم الغلام التى أنطق الله إبنها كى يصحح لها مفاهيم خاطئة فأوضح الله بأن الظاهر ليس مقياساً للحكم على الناس .

ثانياً : خبر الغار :

عن إبن عمر رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إنطلق ثلاث رهط ممن كان قبلهم فآواهم المبيت الى غار فدخلوه فإنحدرت صخرة من الجبل وسدت عليهم باب الغار فقالوت : والله لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعو الله بصالح أعمالكم . . . الحديث [٢] .

فقد دعا الأول الله بما فعله لوالديه ، ودعا الثانى بما فعله مع إبنة عمه ودعا الثالث بما صنعه مع أجيره فأفرجت الصخرة عن الغار وهم يمشون .

وفى هذا الحديث الصحيح ما يشير الى وقوع الكرامات وليس فى الحديث ما يوضح من قريب أو بعيد أنه كان بينهم نبى حتى نقول أنها معجزة لذلك النبى ، وهؤلاء الثلاثة ببركة دعائهم حدث هذا الأمر الخارق مما يشير الى أنها كرامة .

ثالثاً : حديث البقرة :

عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال (بينما رجل يموق بقرة قد حمل عليها فإلتفتت إليه البقرة فقالت ك إنى

---

(١) انظر – كتاب اللمع لأبى نصر السراج ص ٣٩٦.

(٢) رواه البخارى كتاب الأنبياء حديث الغار حديث ٣٤٦٥ .

لم أخلق لهذا وإنما خلقت للحرث فقال الناس : سبحان الله بقرة تتكلم فقال النبى صل الله عليه وسلم آمنت بهذا أنا وأبو بكر وعمر [١] .

ولم تذكر الرواية أن الراكب على البقرة كان نبياً .

رابعاً : كلام السحاب :

روى أبو هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : بينما رجل يسمع صوتاً في السحاب أن إسق حديقة فلان ، قال فغدوت الى تلك الحديقة فإذا رجل قائم فيها فقلت له ما إسمك ؟

قال فلان بن فلان بن فلان قلت فما تصنع بحديقتك هذه ؟ قال : ولم تسأل عن ذلك ؟ قلت لأنى سمعت صوتاً فى السحاب أن إسق حديقة فلان ، فقال : اما إذا قلت فإنى أجعلها أثلاثاً فأجعل لنفسى وأهلى ثلثاً ، وأجعل للمساكين وأبن السبيل ثلثاً ، وأنفق عليها ثلثاً

خامساً : حديث الأشعث الأغبر :

فقد روى الإمام مسلم : أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال : رب أشعث أغبر مدفوع الى الأبواب لو أقسم على الله لأبره [٢] .

ولم يفرق بين شيىء وشيىء فيما يقسم به على الله .

سادساً : حديث المحدثين :

قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لقد كان فيمن قبلكم ناس محدثون فان يك فى أمتى أحد فإنه عمر [٣].

وعمر ليس بنبى وكونه محدثاً يشير الى أنه ملهم من قبل الله وهو ما سوف نفصله فى كلامنا عن الدلائل بالآثار

---

(١) رواه البخارى ومسلم وكذا الترمذى عن أبى هريرة .

(٢) رواه مسلم .

(٣) رواه البخارى ومسلم .

لكن الرسول – صلى الله عليه وسلم فى هذا الحديث يشير الى وقوع الكرامات قبل الإسلام وأظن من غير اللائق أن نثبتها قبل الإسلام ونمنعها بعجه .

سابعاً : غلام أصحاب الأخدود :

عن صهيب رضى الله عنه أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم قال : كان ملك فيمن كان قبلكم وكان له ساحر فلما كبر قال الملك : انى قد كبرت فابعث الى غلاماً أعلمه السحر فبعث اليه غلاماً يعلمه ، وكان فى طريقه إذا سلك راهب فقعد اليه وسمع كلامه فأعجبه . . . فبينما هو على ذلك – إذ أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس ، فقال اليوم أعلم الساحر أفضل أم الراهب أفضل فأخذ حجراً فقال : اللهم إن كان أمر الراهب أحب اليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة . . فرماها فقتلتها ، فأتى الراهب فأخبره فقال : أى بنى أنت اليوم أفضل منى . . . وكان الغلام يبرئ الأكمة والأبرص والأعمى [1] .

ويشير الحديث الى عدة كرامات وقعت لهذا الغلام ومن المؤكد أن هذا الغلام لم يكن نبياً ، لأنه تعلم السحر أولاً ثم تركه .

ثم كان يدعو الله فيبرئ الأكمة والأبرص والأعمى ، وعندما ذهبت به زبانية الملك ليقتلوه دعا الله فارتجف الجبل فسقط الزبانية ونجاه الله .

وهم فى البحر وفى وسطه ليغرقوه دعا الله فأغرقهم الله ونجا الغلام ولا يشك عاقل فى أن هذه الأمور كلها خارقة للعادة .

مع كل ما تقدم يظهر لنا أن السنة النبوية – أيضاً – فيها ما يدل على إمكان وقوع الكرامات .

---

(١) رواه مسلم .

الصحابة ووقوع الكرامة

مما يستدل بـه علـى جـواز الكرامـة وإمكـان وقوعهـا مـا أورده كتـاب السير من آثار عن الصحابة تشير الى وقوع خوارق للعادة على أيديهم فى حياة النبى وبعد وفاته .

وقد أورد صاحب كتاب جامع كرامات الأولياء ما يقرب من ستين مـن صحابة النبىْ – صل الله عليه وسلم قد وقع على أيديهم هذا الأمر .

وسوف نذكر بعض هذه النمازج خاصة المشهورة منها :

١- كرامات أبى بكر الصديق :

ما أخرجه الشيخان عن عبد الرحمن بن أبى بكر رضى الله عنهمـا أن أبا بكر جاء بثلاثة (يعنى أضياف) وذهب يتعشى عند النبى صلـى اللـه عليه وسلم ثم لبث فجاء بعد ما مضى من الليل ما شاء الله ، فقالت لـه إمرأته ما حبسك عن أضيافك ؟

قال : أو ما عشيتهم ؟ قالت : أبواحتـى تجيىء قـال : واللـه لا أطعمـه أبداً ثم قال : كلوا فقال قائلهم : (وأيم الله ما كنا نأخذ من لقمة إلا ربـا من أسفلها أكثر منها فشبعنا وصارث أكثر مما كانت قبل) [١] .

وعن عروة بن الزبير عن عائشـة رضـى اللـه عنهـا : أن أبـا بكـر الصديق رضـى اللـه عنـه كـان نحلهـا عشـرين وسـقا مـن مالـه ، فلمـا مرض قال والله يا بنية ما من الناس أحب الى غنى بعدى منـك ، ولا أعز على فقراً بعدى منك ، وأنى كنت قد نحلتـك عشـرين وسـقا ، فلـو كنت جزته كان لك (وإنما هو اليوم مال وارث) وإنما همـا (أخـواك وأختاك) فإقتسموه على كتاب الله قالت عائشة : يا أبت والله لو كان

---

(١) رواه البخارى ومسلم

كذا وكذا لتركته وإنما هى أسماء فمن الأخرى فقال أبو بكر (ذو بطـن أراها جارية) فكان ذلك .

وقد ذكر الرازى فى تفسـيره سـورة الكهـف بعـض كرامـات أبـى بكـر فقال : أنه لما حملت جنازتـه الـى بـاب قـبر النبـى – صلـى اللـه عليـه وسلم ونودى السلام عليك يا رسـول اللـه هـذا أبـو بكـر بالبـاب ، فـإذا الباب قد إنفتح وإذا بهاتف يهتف من القبر أدخلوا الحبيـب الـى الحبيـب [(١)] .

٢– من كرامات عمر بن الخطاب :

أخرج ابن أبى الدنيا عن عمر أنه مر بـالبقيع فقـال : السـلام عليكـم يـا أهـل القبـور أخبـار مـا عندنـا أن نسـاءكم قـد تزوجـن وديـاركم سـكنت وأموالكم قد فرقت فأجابه هاتف يا عمر بن الخطاب أخبار ما عندنا مـا قدمنـاه فقـد وجدنـاه ، ومـا أنفقنـاه فقـد ربحنـاه ، ومـا خلفنـاه فقـد خسرنـاه [(٢)] .

وأخـرج ابـن عسـاكر عـن يحيـى بـن أيـوب قـال سـمعت أن عمـر بـن الخطـاب رضـى الله عنه قد ذهب الى قبر شاب فناداه : يا فلان (ولمن خاف مقام ربه جنتان) [(٣)] فأجابه الفتى من داخل القبر : يـا عمـر قـد أعطـانيهما ربى وقال التاج السبكى فى طبقاته ومن الكرامـات علـى يـد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب الذى قال فيه رسول اللـه – صـل اللـه عليه وسلم لقد كان فيمن قبلكم ناس محدثون فان يك فى أمتى أحد فإنـه عمر قصة سارية الخارجى كان عمر رضـى الله عنـه قـد أمـر سـارية على جيش من جيوش المسلمين وجهزه على بلاد فارس ، فاشتد على

---

(١) مفاتيح الغيب ج١٠ ص ٢٥٣ .

(٢) ص ١٥٧ ج١ من جامع كرامات الأولياء .

معسكره الحال على باب نهاوند وهو يحصرها وكثرت جموع الأعداء وكاد المسلمون ينهزمون ، وعمر بالمدينة فصعد المنبر وخطب ثم نادى بأعلى صوته يا سارية الجبل ، من استرعى الذئب الغنم فقد ظلم فأسمع الله عز وجل سارية وجيوشه أجمعين وهم على باب نهاوند صوت عمر.فلجأوا الى الجبل وقالوا هذا صوت أمير المؤمنين فنجا وانتصروا .

قال السبكى سمعت والدى يقول : أن علياً كان حاضراً بالمدينة فقيل له ما هذا الذى يقوله أمير المؤمنين ، وأين سارية منا الآن ؟ فقال على كرم الله وجهه دعوه فما دخل فى أمر إلا وخرج منه (١) .

وقد ذكر إمام الحرمين فى كتابه الشامل :

أن الأرض زلزلت فى زمن عمر بن الخطاب رضى الله عنه فحمد الله وأثنى عليه ، والأرض ترجف وترتج ، ثم ضربها بالدرة وقال : قرى ألم أعدل عليك فاستقرت من وقتها .

وقد ذكر الفخر الرازى (٢) أن أقوى كراماته وأعلاها والتى لا يشك أحد فيها أنه رضى الله عنه مع بعده عن زينة الحياة الدنيا واحترازه عن التكليفات ساس الشرق والغرب ، وقلب الممالیك والدول ، ولا شك أن هذا من أعظم الكرامات.

٣- من كرامات عثمان بن عفان :

ذكر التاج السبكى فى طبقاته أنه دخل رجل - كان قد لقى إمرأة فى الطريق فتأملها - على عثمان فقال عثمان : يدخل أحدكم وفى عينيه أثر الزنا .

---

(١) جامع الكرامات الأولياء ص ١٥٧ ج١ .

(٢) مفاتيح الغيب ج١٠ ص ٢٥٥ .

فقال الرجل : أوحى بعد رسول الله – صلى الله عليه وسلم قال : لا ولكنها فراسة المؤمن .

وإنما أظهر عثمان رضى الله عنه هذا تأديباً لهذا الرجل وزجراً له .

وقد علق السبكى على تلك الحادثة بقوله :

أعلم أن المرء إذا صفا قلبه صار ينظر بنور الله فلا يقع بصره على كدر أو صاف إلا عرفه ، ثم تختلف المقامات فمنهم من يعرف أن هناك كدراً فلا يدرى ما أصله ومنهم من يكون أعلى من هذا المقام فيدرى أصله كما حدث لعثمان (١) .

وعن أبى عمر رضى الله عنهما قال : قام رجل من غفار الى عمر رضى الله عنه وهو على المنبر فأخذ عصاه فكسرها ، فما حال عليه الحول حتى أرسل الله الى يده الأكلة فمات منها (٢) .

وقد ذكر الفخر الرازى من كرامات سيدنا عثمان : أنه لما طعن بالسيف فأول قطرة من دمه سقطت وقعت على المصحف على قوله (فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم) (٣) .

ولا أدرى ما السر فى ذكر الفخر الرازى لهذه الحادثة على أنها كرامة إذ أن الآية تشير الى أن الله عز وجل سوف ينصر الرسول صل الله عليه وسلم على أعدائه ، وعثمان كان شهيداً صريعاً فى تلك الحادثة فلو أراد الله تكريم عثمان بمثل ذلك لسقطت قطرة الدم على مثل قوله تعالى (لا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً) أو على مثل قوله (يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى الى ربكى راضية مرضية) .

---

(١) الطبقات نقلا عن النبهانى ج١ ص ١٥٠ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) سورة البقرة الآية : ١٣٧ .

٤- من كرامات على بن أبى طالب :

يحكى التاج فى الطبقات أنه روى أن علياً وولديه الحسن والحسين رضى الله عنهم سمعوا قائلاً يقول فى جوف الليل :

يا من يجيب دعاء المضطر فى الظلم   يا كاشف الضر والبلوى مع السقم
قد نام وفدك حول البيت وانتبهوا   وأنت يا حى يا قيوم لم تنم
هب لى بجودك فضل العفو عن ذللى   يا من اليه رجاء الخلق فى الحرم
إن كان عفوك لا يرجوه ذو الخطأ   فمن يجود على العاصين بالكرم

فقال على رضى الله عنه اطلبوا هذا القائل ، فأتاه هذا القائل يجر شقه حتى وقف بين يديه فقال ما قصتك ؟ فقال إنى كنت رجلاً مشغولاً بالطرب والعصيان ، وكان والدى يعظنى ويقول : إن لله سطوات ونقمات وما هى من الظالمين ببعيد ، فلما ألح فى الموعظة ضربته ، فحلف ليدعون على ويأتى مكة مستغيثاً الى الله ، ففعل ودعا فلم يتم حتى جف شقى الأيمن ، فندمت على ما كان منى وداريته وأرضيته الى أن ضمن لى أن يدعوا لى حيث دعا على - الا أنه مات وهو فى الطريق الى مكة .

فقال له الإمام على : رضى الله عنك إن كان أبوك رضى عنك ، فقال والله كذلك ، فقام على كرم الله وجهه فصلى ركعات ودعا بدعوات أسرها الى الله عز وجل ثم قال يا مبارك قم فقام وعاد الى الصحة كما كان ، ثم قال الإمام على لولا أنك حلفت أن أباك رضى عنك ما دعوت لك.

ومما لا شك فيه أن الإمام على كرم الله وجهه قد وقع على يديه كرامات كثيرة لعل أشهرها ما رواه كتاب السير من أنه قد قلع باب خيبر فى غزوة خيبر وهى وإن كانت فى حياة النبى صل الله عليه وسلم غير أنها تعد كرامة للإمام على .

ولا شك أيضاً أن هناك نوعاً من المبالغات فى نقل الكرامات عن على بن أبى طالب ذلك أن الشيعة يدخلون من هذا الباب وأيضاً بعض غلاة التصوف ينقلون عن على كرامات يشم منها رائحة المبالغة والتهويل مما يجعل رد الفعل من جانب المنكرين قوياً ، حيث ينكرون أصل الكرامة .

فالشيعة حين قالوا أن الله رد الشمس لعلى مرتين هذا الخلط وهذه المبالغة جعلت ابن حزم ينكر الكرامات للأولياء [١] .

وقد ذكر الفخر الرازى من كرامات على بن أبى طالب أن واحداً من محبيه سرق وكان عبداً أسوداً فأتى به الى على بن أبى طالب فقال له : أسرقت قال : نعم فقطع يده فانصرف من عنده فلقيه سلمان الفارسى وابن الكواء فقال ابن الكواء : من قطع يدك فقال : أمير المؤمنين ويعسوب المسلمين ، وختن الرسول وزوج البتول فقال : قطع يدك وتمدحه فقال : ولما لا أمدحه وقد قطع يدى بحق وخلصنى من النار ، فسمع سلمان ذلك فأخبر علياً فدعا الأسود ووضع يده على ساعده وغطاه بمنديل ودعا بدعوات فسمعنا صوتاً من السماء : ارفع الرداء عن اليد فرفعناه فإذا اليد قد برأت بإذن الله تعالى [٢] .

والتكلف فى هذه الحادثة ظاهر خاصة وأنه على فرض صحة الواقعة لا حاجة الى نداء السماء برفع الرداء - وكان منديلاً أول الأمر - فعلى كان سيرفعه سواء نودى أم لا .

ثم أن علياً ليس من اختصاصه قطع الأيادى إذ أن ذلك من شأن القضاه فإن قيل أن هذه الحادثة كانت فى عهد عمر وكان على بن أبى طالب قاضياً قيل له فلماذا ذكر الرجل صفه أمير المؤمنين ، وأظنها والله أعلم - إحدى روايات الشيعة ومن المعلوم أن هناك صلة بين التشيع والتصوف .

(١) الفصل ج٥ ص ٧٢ .(٢) مفاتيح الغيب ج١٠ ص ٢٥٣ ، ج١١ ص ١٥٥ من النبهانى .

الفرق بين الكرامة والمعجزة

كان السبب الأقوى فى منع المانعين للكرامة ووقوعها على يد الأولياء هو الخوف من الإلتباس بالمعجزة والكرامة وبالتالى يحدث خلط بين النبى والولى .

من هنا دعت حاجة البحث إلى التفريق بينهما حتى لا يكون هناك عذر لمعتذر .

تعريف المعجزة :

هى فى اللغة مأخوذة من العجز المقابل للقدرة ، وحقيقة الإعجاز إثبات العجز استعير لإظهاره ثم اسند مجازاً الى ماهو سبب العجز وجعل اسماً له ، والتاء للنقل من الوصفيه الى الإسمية كما فى الحقيقة وقيل للمبالغة (١) .

وفى الإصطلاح : الفعل الذى قصد به إظهار صدق من ادعى أنه رسول (٢) .

والفعل لا يكون دالاً على صدق المدعى إلا إذا توافرت فيه شروط :

١- أن يكون فعل الله أو ما يقوم مقامه ، لأن التصديق منه لا يحصل بما ليس من قبله .

وقيل أو ما يقوم مقامه ليتناول ما إذا قال : معجزتى أن أضع يدى على رأسى وأنتم لا تقدرون عليه ففعل وعجزوا .

فإنه معجز ولا فعل لله هنا فإن عدم خلق القدرة ليس فعلاً ، أما من جعل الترك وجوديا حذفه (٣) .

---

(١) شرح المقاصد ج٢ ص ١٣٠ .

(٢) الواقف ص ٣٣٩ النسخة المجردة طبعة عالم الكتب / بيروت .

(٣) المواقف ص ٣٣٩ .

٢- أن يكون خارقاً للعادة ، لأنه لو لم يكن كذلك لم يكن ليدل على صدق من ظهر عليه أصلاً ، ألا ترى أحدنا لو ادعى النبوة وجعل معجزته شروق الشمس من المشرق وغروبها من المغرب ، لم تصح له دعواه ولم تدل على صدقه بخلاف ما لو جعل معجزته طلوعها من المغرب [1] .

٣- أن تتعذر معارضته - فإن ذلك حقيقة الإعجاز .

٤- أن يكون ظاهراً على يد مدعى النبوة ومن جهته إحترازا عن أن يتخذ الكاذب معجزة من يعاصره من الأنبياء حجة لنفسه .

٥- أن يكون الأمر الخارق موافقاً للدعوى ، لأنه لو لم يوافق دعواه لم يدل على صدقه .

فلو قال معجزتى نطق هذا الجماد فنطق بتكذيبه فإنه يدل على كذبه أما لو قال هذا المدعى : معجزتى نطق هذا الميت فأحياه الله عز وجل قيل : لا يدل على صدقه ولا كذبه .

لأنه بعد الاحياء صار انياناً له حرية التفكير يمكن أن يكون الرسول صادقاً ويكذبه ويمكن أنيكون كاذباً ويصدقه .

بخلاف الجماد أو الحيوان فانه ليس من العادة أن ينطق الجماد أو الحيوان أما إذا قال معجزتى أن أحى هذا الميت بإذن الله بعد تحقيق موته ولم يعلق على نطقه عدت معجزة .

٦- أن يكون مقارناً للدعوة ، لأن التصديق قبل الدعوى لا يعقل فلو قال معجزتى ما قد ظهر على يدى قبل لم يدل على صدق .

فإن قيل : أن عيسى قد نطق وهو فى المهد ، ومحمد صلى الله عليه وسلم قد شق بطنه وسلم عليه الحجر ، والغمام أظلته ، رد عليهم بأن ذلك يعد أرهاصاً .

---

(١)شرح الأصول ص ٥٧١ .

والمحققوم من العلماء على أن خوارق العادات المتعلقة ببعثـة النبـى إذا كانت تتقدمة فإن ظهرت منه وشاعت وكان هو مظنة البعث ، كما فـى حق نبينا صل الله عليه وسـلم حيث أخبـار أهل الكتـاب فارهـاص أى تأسيس لقاعدة النبوة وإلا فكرامة محضة .

وإن ظهرت من غيره فإن كـان مـن الأخبـار فارهـاص أو كرامـة وإلا فارهاص محض كظهور النـور فـى جبيـن عبـد اللـه أو ابتـلاه كمـا إذا ظهرت على يد مدعى الألوهية فإن الأدلة القطعية قائمة على كذبة .

وإن كان الخارق متأخراً ، ان كان بزمان يسير يعد مقارنـا ولا أشـكال وإن كان بزمان متطاول كالأخبار عن الغيـوب ، فالإعجـاز هـو القـول والعلم بالإعجاز متراخ الى تحقيق ذلك الشيىء المخبر عنه .

وعلى كل فإن النبى لا يجوز أن يعلق التشريع على ظهـور هـذا الأمـر بل عليه أن يثبت صدق دعواه بمعجز آخر كما حدث لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم فإنه ثبت صدقـه بمعجـزات أخـرى خـلاف أخبـاره عـن الغيوب [١] .

لهذا كله نجد التفتازانى يحد المعجزة – نقلاً عن الـرازى – بقولـه هـى أمر خارق للعادة مقرون بالتحدى مع عدم المعارضة .

وهو تعريف جامع لهذه الشروط .

وإنما قال أمر ليتناول الفعل كنبع الماء من بين أصابعه الشريفة والترك عدم إحراق النار إبراهيم عليه السلام .

وإحترز بقيد المقارنـة للتحدى عـن كرامـات الأوليـاء ، والعلامـات الإرهاصية التى تتقدم البعثة ، وعن أن يتخذ الكاذب معجزة من مضـى من الأنبياء حجة لنفسه ، وإحترز بقيد عدم المعارضة عن السحر

---

(١) انظر – شرح المقاصد ج٢ ص ١٣٠ ، المواقف ص ٣٤٠ ، شرح الأصول ص ٥٧٠ .

والشعوذة [1] .

شبه المنكرين للمعجزة :

يقدح بعض المنكرين للنبوة فى المعجزة التى هى الدليل على صدق كل من إدعى النبوة وقالوا

أن تجويز خوارق العادات سفسطة إذ لو جازت لجاز أن ينقلب البحر دهنا والجبل ذهبا والمدعى للنبوة شخصا آخر . . . . .

والحقيقة أن هذه شبهه كل من يريد أن يتحلل من الشرائع قديماً وحديثاً .

أما قديماً فكما قلنا عنهم أنهم يرون أنه لا يمكن للعقل أن يصدق بأن العصا تتقلب ثعباناً وأن الجماد ينطق ، وإذا قلنا لهم : أنها حدثت واشتهرت قالوا :

ان أقوى طرق نقل المعجزة الى الغائبين عنها هو التواتر وهو لا يفيد اليقين لأن جواز الكذب على واحد يوجب جوازه على الكل ، لكون الكل نفى الآحاد .

ولأن التواتر لو أفاد اليقين لأفاده خبر الواحد لأن كل طبقة بفرض عدد التواتر فعند نقصان واحد من هذه الطبقة ان بقيت مفيدة لليقين وهكذا الى الواحد فظاهر أن اليقين فى ذلك الواحد المتبقى .

وإن لم تبق مفيدة لليقين كان اليقين على ذلك الواحد الذى نقص ويمكن الإجابة عن هذه الشبهه بأن المراد بخوارق العادات أمور ممكنه فى نفسها ممتنعة الوقوع فى العادة ثم أن قلب العصا حية ليس أبعد من إبداء خلق السماوات والأرض والجزم بعدم وقوع بعضها كإنقلاب البحر دهناً والجبل ذهباً لا ينافى الإمكان الذاتى .

---

(١) شرح المقاصد ج٢ ص ١٣٠ .

وأما حديثاً فإن المنكرين للشرائع من أصحاب التيارات المنحرفة كالشيوعية والوجودية ومن صار على دربهم ينكرون هذه الخوارق بناءاً على أن هذه الخوارق تتعارض مع العلم الحديث .
وإن حدث أمر خارق كالكرامات إستنكفوا أن يسندوا هذا الأمر الى الله عز وجل وإنما قالوا شذوذ الطبيعة ومن المعلوم أن كل من ينكر المعجزات فهو من باب أولى ينكر الكرامات كما أنه ليس كل من ينكر الكرامة ينكر المعجزة إذ يمكن أن يكون سبب الإنكار للكرامة عدم إلتباسها بالمعجزة كما قلنا .

فوائد الإيمان بالمعجزات :

يذكر محمد رشيد رضا أن لإيمان البشر بآيات الأنبياء ثلاث فوائد :

١.جعلها دليلا حسياً على إختياره تعالى فى جميع أفعاله وكون سنن النظام فى الخلق خاضعة له لا حاكمة عليه ولا مقيدة لإرادته وقدرته .

٢.جعلها دليلاً على الصدق فيما يخبرون عنه بوحيه ونذراً للمعاندين لهم من الكفار ، ولو كانت مما يقدر عليه البشر بكسبهم أو تقع منهم بإستعداد روحى فيهم لما كانت آية على صدقهم .

٣.هداية عقول البشر برؤيتها الى سعة دائرة الممكنات وضيق نطاق المحال فى المعقولات والى أن كون الشيء بعيداً عن الأسباب المعتادة والأمور المعهودة والسنن المعروفة لا يقتضى أن يكون محالاً يجزم العقل بعدم وقوعه ، ويكذب المخبر به ولو مع قيام الدليل على صدقه ، وإنما غايته أن يكون الأصل فيه عدم الثبوت فيتوقف ثبوته على الدليل الصحيح .

وهذه قاعدة كبار علماء الكون فى هذا العصر فلا ينقصهم لتكميل علمهم الا ثبوت آية لله لا يمكن أن يكون لها علة من سنن الكون وسبب من أسبابه المطردة (١) .

أوجه الفرق بين المعجزة والكرامة:

يذهب المنكرون للكرامة من المعتزلة وغيرهم الى أن الكرامة لو ظهرت على يد الولى لا تلبس الولى بالنبى والتبست الكرامة بالمعجزة .

ومن هنا قام المثبتون للكرامة بالرد عليهم موضحين أن هناك فرقاً واسعاً بين كل من الكرامة والمعجزة ، وأنه لا صلة بينهما إلا فى كون كل منهما أمر خارق للعادة .

وأوجه الإختلاف بينهما ما يلى :

أولاً : أن المعجزة مقرونة بدعوى النبوة دون الكرامة فهى مقرونة بكمال اتباع النبى من الولى.

ثانياً : أن الأنبياء عليهم السلام مستعبدون بإظهار ذلك للخلق والإحتجاج بها على من يدعونهم الى الله تعالى فمتى ما كتموا ذلك فقد خالفوا الله فى كتمانها والأولياء مستعبدون بكتمان ذلك عن الخلق ، وإذا أظهروا من ذلك شيئا للخلق لإتخاذ الجاه عندهم فقد خالفوا الله وعصوه بإظهار ذلك (٢) .

معنى ذلك أن النبى إذا كتم معجزته يعد مخالفاً لأوامر الله ، أما الولى فانه مطالب بكتمان ذلك قدر إمكانه ويعد مخالفاً إذا أظهر كراماته بطرا و شهرة .

---

(١) كتاب الوحى المحمدى المحمدى للشيخ رشيد رضا ٢٥٣ .

(٢) اللمع ، لأبى نصر السراج ص ٢٩٣ .

ثالثاً : أن الأنبياء عليهم السلام يحتجون بمعجزاتهم على المشركين لأن قلوبهم قاسية لا يؤمنون بالله عز وجل .

والأولياء يحتجون بذلك على نفوسهم حتى تطمئن وتوقن ولا تضطرب ولا تجزع عند فوت الرزق لأنها أمارة بالسوء مجبولة على الشدة .

ولهذا سئل أحمد العلماء : ما معنى الكرامات وهم قد أكرموا حتى تركوا الدنيا اختياراً ، فكيف أكرموا بأن يجعل لهم الحجارة ذهباً ، فما وجه ذلك ؟

أجاب بأن الله يعطيهم ذلك حتى يحتجوا بكون ذلك على أنفسهم عند اضطرابها وجزعها من فوت الرزق الذى قسم الله لهم ، فيقولوا : الذى يقدر على أن تصير لك الحجارةذهباً كما هو ذا تنظر اليه اليس هو بقادر أن يسوق رزقك اليك من حيث لا تحسبه ، فيحتجوا بذلك على ضجيج نفوسهم عند فوت الرزق ويقطعوا بذلك حجج أنفسهم فيكون ذلك سبباً لرياضة نفوسهم وتأديباً لها (١) .

وفى النفس من هذا الفرق شيء لأنه إذا كانت الكرامة بمثابة تثبيت قلب من تقع على يده هذه الكرامة فإن المعجزة أيضاً قد تكون بمثابة تثبيت قلب النبى والدليل على ذلك قول الخليل لربه حين طلب منه رؤية كيفية الأحياء (قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى) (٢) .

معنى ذلك أن ابراهيم طلب الأمر الخارق حتى يطمئن قلبه ، اللهم الا إذا كان النبى يريد أن يطمئن للإحتجاج بها فى الدعوه والدلالة على الله تعالى ، بخلاف الولى الذى يريد الإطمئنان لنفسه .

---

(١) اللمع لأبى سراج ص ٣٩٣ .

(٢) سورة البقرة الآية : ٢٦٠ .

رابعاً : أن الأنبياء كلما زيدت معجزاتهم وكثرت يكون أتم لمعانيهم وأثبت لقلوبهم كما كان نبينا صل الله عليه وسلم وقد أعطى جميع ما أعطى الأنبياء من المعجزات وزيادة مثل الإسراء والمعراج ، وإنشقاق القمر أما الأولياء كلما زيدت فى كراماتهم يكون وجلهم أكثر وخوفهم أكثر حذراً أن يكون ذلك من المكر الخفى لهم والإستدراج [١] .

خامساً : أن المعجزة من شروطها أن تكون مقرونة بالتحدى ، بخلاف الكرامة فإنها لا تقترن بالتحدى ، لهذا عرف العلماء الكرامة بأنها ظهور أمر خارق للعادة عير مقرون بدعوى النبوة [٢] .

سادساً : ذهب بعض المجوزين للكرامة الى امتناع كون الكرامة بقصد إختيار بخلاف معجزة النبى .

سابعاً : أن الكرامة قد يرد نص بمنعها فى بعض الأمور كامتناع أن يأتى بمثل القرآن الذى هو معجزة نبينا محمد صل الله عليه وسلم .

ولهذا يرى البعض الى امتناع كونها من جنس ما وقع معجزة لنبى .

ثامناً : يشترط فى المعجزة أن تكون من جنس ما غلب على القوم بخلاف الكرامة .

مما تقدم يظهر لنا أن هناك فرقاً بين المعجزة والكرامة مما يبطل بالتالى حجج المانعين للكرامة إعتماداً على أنه لو ظهرت المعجزة لالتبس النبى بالولى .

---

(١) اللمع ص ٢٩٥

(٢)شرح المقاصد ج٢ ص ١٤٩ ، وانظر أيضا : غاية المحرام للآمدى ص ٣٣٤ ، ونهاية الاقدام ص ٤٢٢ ، وأصول الدين للبغدادى ص ١٧٣ .

الفرق بين الكرامة والسحر

يخلط العامة فى كثير من الأحيان بين الكرامة التى تقع على يد الولى وبين ما يفعله السحرة والمشعوذون الذين إنتشروا الآن إنتشاراً يدعو للدهشة والغرابة فلا تكاد تجد بلداً إلا وفيها أحد الذين يتاجرون بجهل الناس .

ويستغلون الأمية الدينية لدى هؤلاء الناس زاعمين أن ما يفعلونه من أمور تبدو غريبة انما هى من اكرام الله لهم نتيجة إجتهادهم فى العبادة .

والأدهى من ذلك والأغرب أن وسائل الإعلام أحد الروافد التى عن طريقها ينتشر هذا الإعتقاد الساذج .

فكثيراً ما سمعنا عن قاهر العفاريت ، صاحب الكرامات التى أوتى من الله الإلهامات التى بها يستطيع إبراء الأكمه والأبرص والمصاب بالإيدز ومعرفة الغيب ، والأغرب من ذلك أن تؤلف كتب عن هؤلاء الذين أكرمهم الله لذلك كان لزاماً علينا أن نفرق بين الكرامة والسحر حتى لا يقع الناس فريسة هؤلاء الدجالين من ناحية ومن ناحية أخرى حتى لا يكون رد فعل المتسرعين عنيفاً فينكروا كرامات الأولياء الحقيقية .

تعريف السحر فى اللغة :

يذهب صاحب لسان العرب الى أن السحر عمل شيطانى وبمعرفة من الشيطان ، ومن السحر الأخذة التى تأخذ العين حتى يظن أن الأمر كما يرى وليس الأصل على ما يرى ، والسحر كل ما لطف مأخذه ودق [1] .

---

(١) لسان العرب ج٣ ص ١٩٥١ .

وأصل السحر صرف الشيء عن حقيقته الى غيره [١] .
ويرى صاحب المعجم الوسيط أن السحر كل أمر يخفى سببه ويتخيل أن على غير حقيقته ويجرى مجرى التمويه والخداع [٢] .
وفى المنجد : سحر سحراً ، وسحره : خدعه ، عمل له السحر ، واستحاله وفتنه سلب لبه ، وهو ما لطف مأخذه ودق ، وإخراج الباطل فى صورة الحق وما يفعله الإنسان من الحيل ، والفساد وما يستعان فى تحصيله بالتقرب من الشيطان مما لا يستقل به الإنسان [٣] .
معنى ذلك أن السحر فى اللغة يعنى التمويه والخداع لصرف الشيء عن حقيقته مع الإستعانة بالجن وإستعمال الحيل فى ذلك .

السحر فى الإصطلاح :

يذهب الإمام الرازى الى أن السحر فى عرف الشرع مختص بكل أمر يخفى سببه ويتخيل على غير حقيقته ويجرى مجرى التمويه والخداع [٤] .
ويذهب الشوكانى الى أن السحر هو ما يفعله الساحر من الحيل والتخيلات التى تحصل بسببها للمسحور وما يحصل من الخواطر الفاسدة الشبيهه بما يقع لمن يرى السراب فيظنه ماء [٥] .
يرى ابن القيم أن السحر مركب من تأثيرات الأرواح الخبيثة وإنفعال القوى الطبيعية عنها [٦] .
ويلاحظ أن هذه التعريفات لم تتعرض لذلك النوع الذى يستخدم فيه الساحر العلوم وخواص الأشياء كالزئبق وخلافه ، وإنما كان تركيزهم دائماً على السحر الذى يستعان فيه بالأرواح الشريرة من انس وجن .

---

(١) تاج العروس ج١ ص ٥١٤.(٤) مفاتيح الغيب ج٣ ص ٢٨٠ ط دار الغد
(٢) المعجم الوسيط ج١ ص ٤١٩ . (٥) فتح القدير ج١ ص ١١٩ .
(٣) المنجد فى اللغة ص ٣٣٢ . (٦) التفسير الواضح ج١ ص ٤٩ .

وهم معذورون فى ذلك فإن هؤلاء العلماء لم يشاهدوا مـا نشـاهده الان مـن إسـتعمال التقنيـة العلميـة فـى إبـراز أعمـال السـاحر ، لذلـك ليـس إنتقاصاً من قدرهم أن نقول أن العلماء المحدثيـن فـى تعريفـاتهم كـانوا أكثر دقة من السابقين ، الذين شاهدوا أصنافاً من السحر وغابت عنهم أصنافاً أخرى .

يقول الإمام المراغى :

والسحر إما حيلة وشعوذة وإما صناعة وعلم خفى يعرفه بعض النـاس ويجهله الكثير [١] .

ويقرب من هذا ما يذكـره الشـيخ حجـازى فـى تفسـيره حيـن يذكـر أن السحر إما حيلة وشعوذة أوصناعة علميـة خفيـة يعرفهـا بعـض النـاس ويمكن أن يكون منهـا تـأثير الأرواح والتنويـم المغناطيسـى [٢] نوعـاً واحداً بل أنواع متعددة .

هذه الأنواع تقل وتكثر حسـب دخـول أو خـروج بعـض الأنـواع عنهـا فالشعوذة مثـلاً إعتبرهـا البعـض نوعـاً مـن السـحر فـى حيـن إعتبرهـا الآخرون قسماً مستقلاً عن السحر ، وكذا التنويم المغناطيسى . . . . .

لهذا كله نجد أن العلماء إختلفوا فى تحديد الأنواع .

ويعد الإمام الرازى أكثر من توسعوا فى ذكر أنـواع السـحرمع كونـه من القدماء قد ذكر أن السحر ثمانية أنواع .

النوع الأول : سحر عبدة الكواكب السبعة السيارة ، الذين يعتقـدون أن هذه الكواكب هى المدبرات أمـر هـذا العـالم [٣] وهـؤلاء هـم الصـابئـة الذين أرسل الله اليهم ابراهيم عليه السلام ، ويطلق على هذا النوع من السحر سحر الكلدانيين .

---

(١) تفسير المراغى جـ١ صـ١٨٠ (٢) التفسير الواضح جـ١ صـ٤٩ .
(٣) جـ٣ صـ٢٨٠ .

النوع الثانى : سحر أصحاب الأوهام والنفس القوية والنفوس التى تفعل هذه الأفاعيل – كما يروى الإمام الرازى – قد تكون قوية جداً فتستغنى فى هذه الأفعال عن الإستعانة بالآلات والأدوات ، وقد تكون ضعيفة فتحتاج الى الإستعانة بهذه الآلات .

وتحقيقه أن النفس إذا كانت مستعلية على البدن شديدة الإنجذاب الى عالم السماء كانت كأنها روح من الأرواح السماوية فكانت قوية على التأثير فى مواد هذا العالم .

النوع الثالث : الاستعانة بالأرواح الأرضية :

وأعلم أن القول بالجن مما أنكره بعض المتأخرين من الفلاسفة والمعتزلة ثم أن أصحاب الصنعة وأرباب التجربة من هذا النوع قد شاهدوا أن الإتصال بهذه الأرواح الأرضية يحصل بأعمال سهلة قليلة من الرقى والدخن وهذا النوع هو المسمى بالعزائم وعمل تسخير الجن .

النوع الرابع : التخيلات والأخذ بالعيون :

وهذا الأخذ مبنى على مقدمات :

١- أن أغلاط البصر كثيرة فإن راكب السفينة إذا نظر الى الشط – رأى السفينة واقفة والشط يتحرك ، والقطرة النازلة ترى خطاً مستقيماً .

٢- أن القوة إنما تقف على المحسوسات وقوفاً تاماً إذا أدركت المحسوس فى زمان له مقدار ما أما إذا أدركت المحسوس فى زمان صغير جداً ثم أدركت بعده محسوساً آخر فإنه يختلط البعض ولا يتميز بعض المحسوسات عن البعض [١] .

---

(١) جـ٢ صـ ٢٨٧ .

٣- أن النفس إذا كانت مشغولة بشيء فربما حضر عند الحس شيء آخر ولا يشعر الحس به البتة ، كما أن الإنسان عند دخوله على السلطان قد يلقاه إنسان آخر ويتكلم معه ولا يعرفه ولا يفهم كلامه لأن قلبه مشغول بشيء آخر ، وكذلك الناظر فى المرآة ربما قصد أن يرى قذاة فى عينه فيراها ولا يرى ما هو أكبر منها .

اذا عرفت هذه المقدمات الثلاثة سهل عند ذلك تصور كيفية هذا النوع من السحر ، وذلك لأن المشعوذ الحاذق يظهر عمل شيء يشغل أذهان الناظرين به ويأخذ عيونهم اليه حتى إذا إستغرقهم الشغل بذلك الشيء والتحديق نحوه عمل شيئاً آخر بسرعة شديدة فيبقى ذلك العمل خفياً لتفاوت الشيئين أحدهما : إشتغالهم بالأمر الثانى وسرعة الإتيان بالعمل الثانى وحين إذ يظهر لهم شيء آخر غير ما إنتظروه فيتعجبون منه .

النوع الخامس : الأعمال العجيبة التى تظهر من تركيب الآلات المركبة على النسب الهندسية وذلك مثل الصورة التى يصورها الروم والهند حتى لا يفرق الناظر بينها وبين الإنسان حتى يصورونها ضاحكة باكية .

ويرى الإمام الرازى أم مثل هذا النوع من المفروض أن لا يعد سحراً ولكن لأنه من العجائب والإطلاع عليه عسير عده من أنواع السحر .

النوع السادس : الإستعانة بخواص الأدوية وذلك مثل تناول بعض النباتات التى تبلد العقل والدخن والمسكرة .

النوع السابع : تعليق القلب وهو أن يدعى الساحر أنه قد عرف الإسم الأعظم وأن الجن يطيعونه وينقادون له فى أكثر الأمور فإذا إتفق أن كان السامع لذلك ضعيف العقل قليل التمييز اعتقد أنه حق وتعلق قلبه بذلك وحصل فى نفسه نوع من الرعب والخوف وإذا حصل الخوف ضعفت القوى الحساسة فيتمكن الساحر حينئذ أن يفعل ما يشاء .

النوع الثامن : السعى بالنميمة والتضريب من وجوه خفية وذلك شائع فى الناس .

هذه هى أنواع السحر عند الإمام الرازى ولا يخفى أن الرازى مع علو كعبه فى هذا الميدان وخاصة له كتب مخطوطة بهذا الشأن مثل كتابه الر المكتوم فى مخاطبة الكواكب والنجوم ، وكذا أبحاثه المتفرقة فى ثنايا كتبه .

بالرغم من ذلك فإنه على هذا التقسيم غفل عن أنواع تعد من صميم السحر ، وذكر أنواعاً هى أقرب الى النصب والسرقة مثل النوع السادس لأن كل إنسان يدعى أنه عرف الإسم الأعظم وينقاد الناس له إذا إعتبرناه ساحراً فلنعتبر كل العاملين فى شركات توظيف الأموال سحرة ، وأصحاب مكاتب السفر الذين ينصبون على العامة سحرة ، وأهل الفن الذين ينقاد الناس لهم سحرة ، ولاعبو الكرة الذين يسحبون الناس ورائهم فى كل مكان سحرة الآن .

ثم إن عد الفتنة من أنواع السحر يفتح الباب ليجعل الكذابين سحرة وذى الوجهين الذى يأتى هذا بوجه وهذا بوجه ساحر وهذا يعنى أن أغلب الأمة سحرة .

كما أن العلوم الهندسية والميكانيكية ليست سحراً وإلا إعتبرت العلوم كلها خاصة المادية منها سحراً .

ولا شك أنه كما أن الإمام الرازى قد خلط السحر ببعض العلوم كالهندسة وببعض الرزائل كالنميمة فإن بعض الناس فى عصرنا الحاضر قد خلطوا بين الأمراض النفسية والعصبية وبين السحر .

فإذا رأوا انساناً مكتئباً قالوا مسحور ، وإذا كره انسان زوجته قالوا مسحور وإذا غضب انسان من أخيه قالوا مسحور وهذا الخلط قد يؤدى بدوره الى خطأ فى التشخيص من المشعوذين والدجالين .

وكم رأينا انساناً ربما يكون لديه مشكلة نفسية يذهب به أهله الى هؤلاء الدجالين فيشخصوا هذه المشكلة على أنه مس جان ، وأنه مسحور فيقوم هذا الدجال بضرب المريض أو حرقه مما قد يؤدى الى وفاة هذا المريض نتيجة هذا الجهل .

وقد نرى انساناً فقد منه شيىء فيذهب الى هؤلاء الدجالين فيخبر عن مكان هذا الشيىء فيظن الناس – جهلاً – أن هذا الدجال عالم غيب وأنه تظهر على يديه كرامات .

وإن صدق هذا الدجال فى اخباره وهو نادر فليس ذلك بغيب لأن هذا النوع من الغيبيات الإضافية ، فهو بالإضافة الى صاحب الشيىء المفقود غيب ولكنه بالنسبة لمن أخذه ليس بغيب .

كما أنه بالنسبة للجن الذين تواجدوا وقت الحادثة ليس بغيب وربما يكون هذا الدجال ممن يستعملون الجان فيخبره بمكان هذا الشيىء .

وقد أخبرنا القرآن الكريم أن هناك من يستعملون الجان ويسخرونهم وذلك فى قوله تعالى (وانه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا) [1] مع ملاحظة أن هذا التسخير ليس على اطلاقه بل هو مقيد وإلا لو كان هذا التسخير مطلقاً لإعتمدت عليه المخابرات المصرية – مثلاً – فى كشف ما يدبره لنا الأعداء .

معنى ذلك أن هذا الدجال الذى يسخر الجان محدود بحدود ومقيد بشروط .

نماذج من السحر فى القرآن الكريم :

تحدث القرآن الكريم عن قضية السحر فى أكثر من موضوع وهو إذ

---

(١) سورة الجن : ٦ .

يذكر هذه القضية ينبه الناس جميعاً الى أن السحر رغم التحذير منه لا يمكن تأثيره فى المسحور إلا بقضاء الله وقدره (وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله) [١] .

ففى حديث القرآن عن صالح عليه السلام : ورد قوله تعالى على لسان ثمود (قالوا إنما أنت من المسحرين) [٢] أى من المسحورين أى لاعقل لك كالمسحور .

وأهل مدين إتهموا شعيباً بالسحر حين قالوا : (إنما أنت من المسحرين) [٣] .

وفرعون وقومه كانوا يرمون موسى بهذا السحر حين قالوا (إن هذان لساحران) (إن هذا لساحر عظيم) (إنه كبيركم الذى علمكم السحر) .

فموسى إتهم بأنه ساحر بخلاف من سبقه من الأنبياء فكانوا متهمين بأنهم مسحورين .

اللهم إلا آية واحدة إتهم فيها فرعون موسى بأنه مسحور حين قال له (إنى لأظنك يا موسى مسحورا) .

وأظنه تخبط الكاذب الذى لا يستقر على حال ولا يثبت على مبدأ ، كما فعل الكفار مع رسول الله صل الله عليه وسلم حين قالوا ساحر ومسحور ، وشاعر وكاهن وكذاب . . . وهكذا .

وقد اختلف العلماء حول حقيقة السحر فى زمن موسى عليه السلام هل كان له حقيقة ثابتة أم كان تمويها وتخييلا .

---

(١) سورة البقرة : ١٠٢ .

(٢) سورة الشعراء : ١٥٣ .

(٣) سورة الشعراء : ١٨٥ .

أغلب التفاسير تشير الى أن سحرة فرعون قد وضعوا فى عصيهم وحبالهم مادة الزئبق ، وقيل دهنوها بالزئبق فلما أصابها حر الشمس إرتعشت وإهتزت فخيل للناس أنها تسعى .

وعلى هذا فإن سحر السحرة كان تمويهاً [١] .

ويذهب الشوكانى الى أن هذا السحر كان حقيقياً ، ذلك أن سبب خوف موسى هو أن سحرهم كان من جنس ما أراهم فى العصا فخاف أن يلتبس أمره على الناس فلا يؤمنوا [٢] .

والى قريب من هذا يذهب الطبرى ، ويؤيد فى ذلك الشيخ عبد الوهاب النجار .

وكلا الرأيين فيه نظر :

أما الرأى الأول : فان قصر الحادث على نوع معين فيه تحكم ، خاصة وأن مادة الزئبق ليس لها التأثير الذى يجعل موسى يتوجس فى نفسه خيفة كما قال : (فأوجس فى نفسه خيفة موسى) .

ثم أن القرآن ذكر أن القوم أتو بكل سحار عليم فلما حضر هؤلاء السحرة ، إسترهبوا كل الحاضرين وجاءوا بسحر عظيم كما قال تعالى (وإسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم) .

وهذا يشير الى أنه إجتمع فى هذا اليوم أعظم السحرة وأعظم الأنواع .

أما الرأى الثانى : فمرجوح أيضاً لامور منها :

١- أن قلب الحقائق ليست إلا لله عز وجل ، وأن هذا ما حدث لمعجزات الأنبياء .

---

(١) مفاتيح الغيب جـ ٣ ص ١٨٣ .

(٢) فتح القدير جـ٣ ص ٣٧٤ .

٢- لو كان الساحر يقلب حقيقة العصا الى حية حقيقية لإلتبست المعجزة بالسحر ولما كان هناك فرق بين النبى الذى يدعى النبوة وبين الساحر الذى يدعى النبوة .

٣- ان القرآن الكريم قرر أن سحر هؤلاء السحرة لم يتعد العين التى تنظر كما قال (سحروا عين الناس) [١] .

٤- أن القرآن الكريم أطلق على فعل السحرة أفك ، والأفك غير الحقيقة كما قال (فإذا هى تلقف ما يأفكون)[٢] .

٥- أن القرآن سماها تخييلاً وتمويهاً كما قال (يخيل اليه من سحرهم أنها تسعى) [٣] .

إذاً ما حدث من السحرة لم يكن حقيقة فى تأثيره وإنما كان تخييلاً وتمويهاً ليس له حقيقة بخلاف عصا موسى ، فإنها إنقلبت حية حقيقة ، ولهذا فإن السحرة دون سواهم – قد إنقلبوا ساجدين لرب موسى الذى يقلب الحقائق وذلك لأنهم أدرى الناس بصناعة السحر لهذا آمنوا بخلاف عامة الشعب فإن موسى عندهم لا يعدو ا أن يكون معلماً لهؤلاء السحرة وكبيرهم .

لهذا نجد المصريين زمن موسى وهم فى أشد الحاجة الى موسى والى ربه لا يتورعون عن مناداته بالساحر (وقالوا يا أيها الساحر ادع لنا ربك) [٤] .

من كل ما تقدم ندرك أن السحر حقيقة كعلم له قواعد وضوابط تختلف بإختلاف الأنواع أما تأثيره – خاصة فى مثل سحرة فرعون – فلا يعدو التخييل والتمويه .

---

(١) سورة الأعراف : ١١٦ .   (٣) سورة طه : ٦٦ .

(٢) سورة الأعراف : ١١٧.   (٤) سورة الزخرف : ٤٩ .

وفى القرآن أيضاً نجد بنى اسرائيل يتهمون عيسى عليه السلام عندما أتاهم بالمعجزات بأنه ساحر (وإذ كففت بنى اسرائيل عنك إذ جئتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم ان هذا إلا سحر مبين)[١] .

كما إتهمت قريش رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه ساحر حين قالوا (ولو نزلنا عليك كتاباً فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين)[٢] .

وإتهموه بأنه مسحور حين قالوا (إن تتبعون إلا رجلاً مسحورا)[٣] .

معنى ذلك أن قضية السحر وجدت فى كل العصور وقابلت أغلب الأنبياء وهذا يشير الى أنها قضية عامة وقديمة .

ولكن السؤال الذى يفرض نفسه الآن : هل سحر رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ .

روى البخارى فى صحيحه عن عائشة رضى الله عنها قالت : سحر رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل من بنى زريق يسمى لبيد بن الأعصم حتى أنه صلى الله عليه وسلم كان يخيل اليه أنه كان يفعل الشيىء وما فعله حتى إذا كان ذات يوم – أو ذات ليلة – وهو عندى لكنه دعا ثم قال : يا عائشة أشعرت أن الله أفتانى فيما أستفتيه فيه ؟ أتانى رجلان فقعد إحداهما عند رأسى والآخر عند رجلى .

فقال إحداهما لصاحبه ما وجع الرجل فقال مطبوط ، قال من طبه قال : لبيد بن الأعصم ، قال فى أى شيء ؟ قال فى جف طلع نخلة ذكر قال : وأين هو ؟ قال : فى بئر زروان فأتاها رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن الحديث يشير إلى أن الرسول صلى الله عليه وسلم

(١) سورة المائدة : ١١٠ .
(٢) سورة الإسراء : ١٠١ .
(٣) سورة الأنعام : ٧ .

فى ناس من أصحابه فجاء فقال يا عائشة كأن ماءها نقاعه الحناء وكأن رءوس نخلها رءوس الشياطين فقلت : يا رسول الله أفلا إستخرجته ؟ قال : قد عافانى الله [١] وقد اختلف العلماء حول هذا الحديث .

فمنهم من يرى عدم صحة الحديث وينكر وقوع السحر لرسول الله ومنهم من يقر بصحة الحديث إلا أنه يمنع أن يكون الرسول قد سحر أو على الأقل لا يصح الاعتقاد بذلك بناءاً على أن خبر سحر الرسول من أخبار الآحاد وخبر الآحاد لا يحتج به في مجال العقيدة .

وكان حجة المانعيين لوقوع السحر لرسول الله صلى الله عليه وسلم أنه لو وقع السحر لرسول الله لأدى الى إدخال الشك في نبوة النبي صلى الله عليه وسلم لأن الحديث يشير الى أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يخيل إليه أنه فعل الشيء ولا يكون قد فعله ، ثم أن هذا الكلام يحط من شأن النبي ومن منصب النبوة .

ثم أنه بمثابة تصديق لما إدعاه المشركون الظالمون حين قالوا (إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً) .

وقد مال الى إنكار حادثة سحر لبيد لرسول الله الإمام محمد عبده وقال ولا يخفى أن تأثير السحر في نفسه عليه السلام حتى يصل به الأمر الى أن يظن أنه يفعل الشيء وهو لا يفعله ليس من قبيل تأثير الأمراض في الأبدان ولا من قبيل عروض السهو والنسيان في بعض الأمور العادية بل هو ماس بالعقل آخذ الروح وهماً مما يصدق قول المشركين فيه " .

---

(١) فتح البارى كتاب الطب باب السحر جـ١ ص ٢٢١ .

(إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً) وليس المسحور عندهم إلا من خولط في عقله ، وخيل له شيئاً يقع وهو لا يقع فيخيل إليه أنه يوحى إليه ولا يوحى إليه .

وأن الحديث عن فرض صحته – فهو احاد والآحاد لا يأخذ به في باب العقائد وعصمة النبي من تأثير السحر في عقله عقيدة من العقائد (١) .

أما حجة القائلين بوقوع السحر برسول الله وأن لبيد سحر الرسول ونال منه أن رواة الحديث من أوثق الناس وأعلمهم وأن الحديث قد ورد في الصحيحين (البخارى ومسلم) وأن القصة مشهورة عند المفسرين وأن الذى حدث لرسول الله كان مرضاً من الأمراض ، وأنه يجوز عليه مثل هذه الأمور كما حدث في أحد حين شج وجهه الشريف .

ولا تقدح هذه الحادثة في عصمته صلى الله عليه وسلم لأن العصمة كانت متعلقة بالتبليغ ، وأما خلاف التبليغ فهو بشر مثل باقى البشر يجرى عليه ما يجرى عليهم من العوارض ، ثم أن هذا السحر الذى أصيب به لم يكن واقع على عقله أو قلبه .

وإذا كان لنا من رأى فإننا نميل الى منع وقوع السحر لرسول الله صلى الله عليه وسلم خاصة على عند من قال أنه خولط عقله زمنها ، وذلك للأسباب التالية :

١- أن فرض حدوث هذه الحادثة يؤدى الى تصديق – ولو لزمن محدود لما قاله الكفار حين قالوا (إن تتبعون إلا رجلاً مسحورا) أى مخلوط العقل لأنه ترك دين آبائه .

٢- أن فرض وقوع هذه الحادثة يتعارض مع قول الله عز وجل (والله يعصمك من النـــاس).

(١) الشيخ محمد عبده في تفسير جزء عم ص ١٣٨ .

٣- ما المانع - على فرض صحة وقوع الحادثة - أن يكون جبريل قد أتى للرسول بتشريع وخيل الى الرسول أنه لم يأت ، والآية السابقة لا تنفى ذلك .
٤- أن السحر المذكور في الحادثة ليس مرضاً جسمانياً كما يزعم المثبتون لأن اللغة لم تستعمل السحر وتقصد به مرضاً جسمانياً وإن قالوا لدقة المرض ولطفه وعدم رؤيته ، قلنا وعلى هذا فالمصاب بالبلهارسيا مسحور لعدم رؤيتها بالعين وكذا أغلب الأمراض .
٥- أن نص الحديث يشير الى أن تأثير السحر لا يتعدى العقل إذ التخيل ليس محله القدم أو البطن بل العقل والعين وخاصة أنه قد ذهب البعض الى أن شرط النبي سلامة الحواس .
٦- ما المانع في أن نخطىء أحد الرواه ونغلق باب الشبة في وجه الطاعنين المعاندين الذين قد يشككون في الدين دخولاً من مثل هذه الأحاديث .
٧- لا يقدح في حجية السنة أن نرد بعض الأحاديث الآحاد التى تتعارض مع آيات القرآن وخاصة فيما يتعلق بأمور العقيدة التى تحتاج الى إحتياط أشد - ونأخذ البعض الآخر الذى يعاضده القرآن والسنة .
٨- هناك فرق بين أن كون الإصابة في الوجه وسائر الجسد وبين أن تكون في العقل الذى يتوقف عليه تبليغ الرسالة .
ونحن نقول ذلك إعتقاداً منا بأن لبيد الساحر يختلف عن سحرة فرعون لإختلاف الوسائل .

مما تقدم يتبين لنا أن هنا فرقاً بين الكرامة وبين السحر ، إذ الكرامة تظهر على يد ولى أما السحر فلا يستخدمه إلا كل شقى ، ولا ينفذ الساحر سحره إلا على من لم يكن من أهل صناعته ولا يكون له بهما دراية ومعرفة ثم أن السحر يمكن تعلمه بخلاف الكرامة .

الفرق بين الكرامات والإستدراج

تعريف الإستدراج :

يقال في اللغة إستدرجه الى كذا إذا إستنزله إليه درجة فدرجة حتى يورطه فيه .

وفى الإصطلاح :

أمر خارق للعادة يظهره الله على يد إنسان غير تقى وهو يظن أنه كرامة وهو في الحقيقة سبب لهلاكه كما قال تعالى (سنستدرجهم من حيث لا يعلمون) .

يقول الرازى في تفسيره : اعلم أن من أراد شيئاً فأعطاه الله مراده لم يدل ذلك على كون ذلك العبد وجيهاً عند الله تعالى سواء كانت العطية على وفق العادة أم لم تكن على وفق العادة ، بل قد يكون ذلك إكراماً للعبد وقد يكون ذلك إستدراجاً [١] .

ولهذا الإستدراج أسماء في القرآن :

أولاً : الإستدراج : قال يعالى (سنستدرجهم من حيث لا يعلمون) [٢]

ومعنى الإستدراج: أن يعطيه الله كل ما يريده في الدنيا ليزداد غيه وضلاله وجهله وعناده فيزداد كل يوم بعداً عن الله .

وتحقيقه : أنه ثبت في العلوم العقلية أن تكرار الأفعال سبب لحصول الملكة الراسخة فإذا مال قلب العبد الى الدنيا ثم أعطاه الله مراده فحين إذ يصل الطالب الى المطلوب وذلك يوجب حصول اللذة وحصول اللذة يزيد في في الميل وحصول الميل يوجب مزيد السعى ولا يزال ينادى كل واحد منهما الى الآخر وتتقوى كل واحدة من هاتين الحالتين درجة فدرجة .

---

(١) مفاتيح الغيب جـ١ ص ٢٦٢ . (٢) سورة القلم الآية : ٤٤ .

ومعلوم أن الإشتغال بهذه اللذات العاجلة مانع عن مقامات المكاشفات ودرجات المعارف فلا جرم يزداد بعده عن الله فهذا هو الإستدراج.

ثانياً : المكر ، قال الله تعالى (فلا يا من مكر الله إلا القوم الخاسرون) [1] ، وقوله تعالى (ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون) [2].

ثالثاً : الكيد ، قال تعالى (إنهم يكيدون كيداً وأكيد كيداً) [3].

رابعاً : الخداع ، كما في قوله (يخادعون الله وهو خادعهم) [4] .

خامساً : الاملاء ، كما في قوله (وأملى لهم أن كيدى متين) [5] ، قوله (ولا يحسبن الذين كفروا إنما نملى لهم خيراً لأنفسهم إنما نملى لهم ليزدادوا إثما) [6].

معنى ذلك أن القرآن الكريم يشير الى أن الوصول الىالمطلوب سواء كان ذلك عن طريق عادى كما في سائر العاديات أم عن طريق غير عادى كما في الخوارق ، هذا الوصول لا يدل على كمال درجة العبد عند الله وأنه من الفائزين .

ومن هنا يظهر لنا الفرق بين الكرامة والإستدراك والتى يمكن إجمالها فيما يلى :

١- أن صاحب الكرامة لا يستأنس بتلك الكرامة – أى لا يركن اليها – بل عند ظهور الخارق يصير خوفه من الله أشد وحذره من قهر الله أقوى فإنه يخاف أن يكون ذلك من باب الإستدراج ، بخلاف صاحب الإستدراج فإنه يستأنس بذلك ويظن أنه إنما وجدتلك العطية لأنه كان

---

(١) سورة الأعراف الآية : ٩٩ . (٢) سورة النمل الآية : ٥٠ .

(٣) سورة الطارق الآية : ٩،٨ . (٤) سورة النساء الآية : ١٤٢ .

(٥) سورة القلم الآية : ٤٥ . (٦) سورة آل عمران الآية : ١٧٨ .

مستحقاً لها ، وحينئذ يستحقر غيره ويتكبر عليه ويحصل لـه امن من مكر الله وعقابه ولا يخاف سوء العاقبة (١) .

٢- أن صاحب الكرامة مداوم على متابعة النبي صلى الله عليـه وسلم معتقداً أن كل فضل يناله يرجـع الفضـل فيـه إلـى التزامـه سيرة النبـي وإتباع شرعه بخلاف المستدرج الذي ينظر إلـى ذاتـه أكـثر مـن نظـره إلى صاحب الشريعة .

٣- أن صاحب الكرامة في ترقى مع الله بسبب زيادة خوفه كلما حدث خـارق بخـلاف المسـتدرج فـان فـي تدنـى وبعـد عـن الحـق كلمـا لاح خارق .

والمحققون يخافون الكرامات أن تكون إستدراجاً كمـا يخـافون البـلاء ، والذي يدل على أن الاستئناس بالكرامة قاطع عن الطريق وجوه :

١- أن هـذا الغـرور إنمـا يحصـل إذا اعتقـد الرجـل أنـه مسـتحق لهـذه الكرامة ، لأنه بتقدير أن لا يكون مستحقاً لها يمتنع حصـول الفـرح بهـا بل يجب أن يكون فرحه بكرم المولـى وفضلـه أكـبر مـن فرحـه بنفسـه فثبت أن الفرح بالكرامة الا - إذا اعتقـد أنـه أهـل ومسـتحق بهـا وهـذا عين الجهل لأن الملائكة قالوا (لا علم لنا إلا ما علمتنا) .

٢- أن الكرامات أشـياء مغـايرة للحـق سبحانه فـالفرح بالكرامـة فـرح بغير الحق والفرح بغير الحق حجاب عن الحق والمحجوب عـن الحـق كيف يليق به الفرح .

٣- أن مـن اعتقـد فـي نفسـه أنـه صـار مسـتحقاً للكرامـة بسـبب عملـه حصل لعمله وقع عظيم في قلبه ، ومن كان لعمله وقع عنده كان جاهلاً ولو عرف ربه لعلم أن كل طاعات الخلق في جنب جلال الله تقصير ،

---

(١) مفاتيح الغيب جـ١٠ صـ ٢٦٣ .

وكل شكرهم في جنب الائه ونعمائه قصور ، وكل معارفهم وعلومهم فهى مقابلة عزه حيرة وجهل ولذا قال أبو على الدقاق " علامة أن الحق يقبل عملك أن لا يبقى عندك ، فإن بقى عملك فى نظرك فهو مدفوع وإلا فهو مرفوع " .

٤- أن صاحب الكرامة إنما وجدها لإظهار الذل والتواضع فى حضرة الله فإذا ترفع وتكبر بسبب تلك الكرامات فقد بطل ما به وصل الى الكرامات ولهذا كان النبى صلى الله عليه وسلم حين يذكر مناقبه يقول ولا فخر .

٥- أن ظاهر الكرامات فى حق ابليس - كما سبق - كان عظيماً وكذا فى حق بلعام الإسرائيلى ثم قيل لإبليس (وكان من الكافرين) وقيل لبلعام (فمثله كمثل الكلب) .

٦- أن الكرامة غير المكرم وكل ما هو غير المكرم فهو ذليل ، وكل من تعزز بالذليل فهو ذليل ولهذا قال الخليل (أما اليك فلا) لأن الإستغناء بالفقير فقر ، والتقوى بالعاجز عجز ، فالفقير إذا ابتهج بالكرامة سقط عن درجته .

٧- أن الإفتخار بالنفس وبصفاتها من صفات إبليس وفرعون قال إبليس (أنا خير منه) وقال فرعون (أم أنا خير من هذا) .

٨- قال الله لنبيه صلى الله عليه وسلم (فخذ ما أتيتك وكن من الشاكرين واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) فلما أعطاه الله العطية الكبرى أمره بالإشتغال بخدمة المعطى .

٩- أن النبى صلى الله عليه وسلم لما خيره الله بين أن يكون ملكاً نبياً وبين أن يكون عبداً نبياً ترك الملك . ولا شك أن وجدان الملك الذي يعم المشرق والمغرب من الجرامات بل من المعجزات ثم أنه صلى

الله عليه وسلم ترك ذلك الملك واختار العبودية لأنه يريد أن يكون افتخاره بمولاه .

١٠- أن محب المولى غير محب ما للمولى فمن أحب المولى لم يفرح بغيره فالاستئناس بغير المولى يدل على أنه ما كان محباً له بل كان محباً لنصيب نفسه فهذا الشخص ما أحب إلا نفسه ، وما كان المولى محبوباً له بل جعل المولى وسيلة آلي تحصيل المطلوب [1] .

مما تقدم يظهر لنا أن الأولياء لا يفرحون بالجرامات خشية أن تكون إستدراجاً .

والحقيقة أن الكرامة غير الإستدراج لأن الإستدراج يكون خارقاً للعادة يظهره الله على يد عبد غير تقي فيظن أنه وصل وما حصل فيكون سبباً لهلاكه .

أما الكرامة فإنها لا تظهر على يد عبد تقي نقي طاهر ظاهراً وباطناً وهو الولي الذى ذكره الله فى كتابه .

الكرامة ليست شرطاً فى الولاية

يقول ابن عربي وهو يتحدث عن مقام ترك الكرامات وأن عدم الكرامة لا ينفى الولاية لأن ظهور الخارق ليس علامة عليها إذ ربما يكون إستدراجاً .

ترك الكرامة لا يكون دليـــــلاً	فاصغ لقولي فهو أقوم قيـــــلا
ان الكرامة قد يكون وجودهـــا	حظ المكرم ثم ساء سبيـــــلا
فاحرص على العلم الذى كفلته	لا تتخذ غير الإله بديـــــــلا
سترى الكرامة واجب متحقـق	عند الرجال فلا تكن مخزولا
وظهورها فى المرسلين حقيقـة	وبها تنزل وحيه تنزيـــــــلا [2]

(١) جامع الكرمات جـ١ صـ٢٥ .
(٢) الفتوحات المكية نقلاً عن كتاب النبهاني ج١ ص ٣٩ .

وابن عربى هنا يتحدث عن الخوارق بصفة عامة فإن هذا الأمر واجب على الرسول إظهاره من أجل الدعوة ، ويجب على الولى التابع ستره ثم يقول هذا مذهب الجماعة لأن الولى غير مدع ولا ينبغى له الدعوى فإنه ليس بمشرع وميزان الشرع موضوع فى العالم قد قام به علماء الرسوم أهل الفتوى فى دين الله فهم أرباب التجريح والتعديل[١] .

ويقول الإمام محمد الرندى فى شرحه على الحكم العطائية عند قول ابن عطاء :

ليس كل من ثبت تخصيصه كمل تخليصه والتخصيص ها هنا هو أن يظهر الحق تعالى على بعض عباده عنايته وتوليه لطفه ورعايته فمنهم من يستمر له ذلك حتى يتحقق بالعرفان ويتخلص عن رؤية الأغيار والأكوان وهؤلاء هم خواص المقربين أهل العلم بالله ، ومنهم من يوقفه عن بلوغ ذروة الكمال فى حاله بما يليق به من علوم وأعمال وهؤلاء هم المقربين وخاصة أصحاب اليمين العباد الزهاد ، وهؤلاء وإن شاركوا الأولين فيما يتحفهم الله من لطائف الكرامات وفيما يمنحهم الله من القيام بوظائف الطاعات ، فلم يتخلصوا من رؤية نفوسهم ولم ينفكوا عن مراعاة حظوظهم .

وقد يكون من لا يكاشف بشيىء من معانى القدر أفضل ممن يكاشفها اذا كاشفه الله تعالى بصرف المعرفة ، فالقدرة أثر القادر ، ومن كان أهلاً لقرب القادر لا يستغرب ولا يستكثر شيئاً من القدرة ، ويرى القدرة تتخلى له من سجف أجزاء الحكمة .

وقد سئل الشبلى رضى الله عنه وقيل له : إن أبا تراب ذكر أنه جاع فى البادية فرأى البادية كلها طعاماً فقال : عبد رفق به ولو بلغ الى محل التحقيق لكان كمن قال إنى أبيت عند ربى يطعمنى ويسقينى[٢] .

(١) نفس المصدر السابق . (٢) ص ٤٥ جـ١ من جامع كرامات الأولياء .

معنى ذلك أنه كل من ظهرت على يديه كرامة فهو ولى وأصل ، كما أنه ليس من فقد الكرامة فقد الولاية .

يقول أبو الحسن الشاذلى :

فائدة الكرامة تعريف اليقين من الله تعالى بالعلم والقدرة والإرادة والصفات الأزلية . . . ولأجل أنها تثبت وجدها أهل البدايات فى بداياتهم وفقدها أهل النهايات فى نهاياتهم .

إذ ما عليه أهل النهايات من الرسوخ فى اليقين والقوة والتمكين لا يحتاجون معه الى مثبت وهكذا كان السلف لم يحوجهم الحق الى ظهور الكرامات الحسية لما أعطاهم من المعارف الغيبية والعلوم الإشهادية ، ولا يحتاج الجبل الى مرساه ، فالكرامة رافعة لزلزلة الشك فى المنة ، ومعرفة تفضل الله فيمن أظهرت عليه .

موقف الإسلاميين من الكرامة

ذهب أغلب المسلمين الى جواز كرامة الأولياء وقد انقسم هؤلاء الى مذاهب منهم من يرى إمتناع كون الكرامة بقصد وإختيار من المولى ، ومنهم من يرى إمتناع كونها علىٰ قضية الدعوى فلو ادعى الملى الولاية وإعتقد بخوارق العادات لم يجز ولم يقع بل ربما سقط فى مرتبة الولاية ، ومنهم من ذهب الى امتناع كونها من جنس ما وقع معجزة لنبى كإنفلاق البحر وإنقلاب العصا حية وإحياء الموتى ، ومنهم من قال بتجويز جملة خوارق العادات فى معرض الكرامات .

وهؤلاء جميعاً متفقون على أنه لا يستطيع أحد أن يأتى بمثل القرآن مع أنه معجزة لرسول الله إذ أنه ورد نص قاطع على أن أحد لا يأتى بمثله وهو لا ينافى الحكم أن كل ما وقع معجزة لنبى يجوز أن يقع كرامة لولى .

غير أن المعتزلة عدا أبو الحسن البصرى وكذا الظاهرية وأبو إسحاق الاسفراييني من الأشاعرة ذهبوا الى إمتناع وقوع الكرامات .

وقبل أن نتناول بالتفصيل آراء المعارضين والمجوزين علينا أن نذكر جملة الخوارق ذلك أنه إذا ظهر فعل خارق للعادة على يد الإنسان فذاك إما أن يكون مقرون بالدعوى أولاً .

والضرب الأول وهو أن يكون مع الدعوى فتلك الدعوى إما أن تكون دعوة الهية أو دعوة النبوة أو دعوة الولاية أو دعوى السحر فهذه أربعة أقسام :

القسم الأول : إدعاء الإلهية جوز أهل السنة ظهور خوارق العادات على يديه من غير معارضة كما نقل عن فرعون ، وعن المسيخ الدجال ، وتجويز ظهور الخوارق على يده لأن شكله وخلقته تدل على كذبه ، فظهور الخوارق على يده لا يفضى الى التلبيس .

القسم الثانى : وهو إدعاء النبوة فإن كان صادقاً وجب ظهور الخوارق على يده وهذا متفق عليه عند المتكلمين وغيرهم ممن أقر بصحة نبوة الأنبياء وإن كان كاذباً إتفق الكل على أنه لا يجوز ظهور الخوارق على يده .

القسم الثالث : وهو إدعاء الولاية والقائلون بكرامات الأولياء إختلفوا فمنهم من قال بمنعها ومنهم من أجازها – كما مر – ومنهم من منعها جملة كالمعتزلة .

القسم الرابع : وهو إدعاء السحر وطاعة الشيطان فعند أهل السنة يجوز ظهور الخوارق على يده وعند المعتزلة لا يجوز .

وأما الضرب الثانى وهى أن تظهر الخوارق بغير دعوى .

فذلك الإنسان إما أن يكون صالحاً مرضياً عند الله وإما أن يكون عاصياً مذنباً ، وإما أن يكون بين هذا وذاك .

والأول من هذه الخوارق يسمى كرامة وقد إتفق المتكلمون على جوازه وأنكر المعتزلة إلا أبا الحسين البصرى .
وإن وقعت على يد من كان عاصياً مردوداً عن طاعة الله فهذا هو المسمى بالإستدراج ، وإن وقعت لبعض العوام ممن ليس لهم قدم راسح فى العبادة سمى هذا الأمر معونة .
إذا عرفنا ذلك وتبين لنا أن الكرامة أحد أقسام الخوارق فلنبدأ ببيان مذاهب علماء الكلام فى الكرامة .

أولاً : موقف المعارضين للكرامة

١- موقف المعتزلة :

تعد فرقة المعتزلة من أول الفرق الإسلامية إستعمالاً للعقل ، ولهذا نراهم يؤولون الآيات والأحاديث التى لا تتفق مع آرائهم وإعتقاداتهم ، ولا يخفى على أحد الدور الهام الذى قامت به المعتزلة فى الدفاع عن الدين والزود عن حياضه فى زمن كان لابد فيه من إستعمال العقل حيث الفتوحات الإسلامية وترجمة الفلسفة وكتب المنطق ، فكان لابد من مواجهة عقلية هذا الوافد فكانت المعتزلة ومنهجها فى الفكر .
ومسألة كرامة الأولياء ليست بدعاً من المسائل التى ناقشها المعتزلة ووضعها على بساط البحث واستعملوا فيها العقل الى أبعد حد ممكن ، ومن الإنصاف أن نذكر حسن قصدهم وخمال هدفهم حتى وإن أخطأوا ، كما لا ينبغى أن نسوى بينهم فى إنكارهم للكرامة وبين من ينكرون خوارق العادات جملة وتفصيلاً بدعوى إستحالتها عقلاً .
فالمعتزلة يريدون أن يحافظوا على مرتبة النبوة ، وجلال المعجزة وهى عندهم تكون حين يقتصر الإعجاز على دعوى النبوة إذ هم يؤمنون بخوارق العادات حين تظهر على يد نبى من الأنبياء لهذا

نراهم يستعملون عقولهم فى أى نص من شأنه إثبات الكرامة فيقولون أن الآيات التى يوهم ظاهرها أنها كرامة والتى عليها يعتمد المجوزين للكرامة ، نراهم يقولون أن هذه الخوارق معجزة لنبى ذلك الزمان الذى وقعت فيه .

فمسألة مريم وأنه كان يأتيها رزقاً بغير حساب يقول المعتزلة أن ذلك كله كان معجزة لعيسى عليه السلام .

والذى عنده علم من الكتاب هو سليمان ، وأهل الكهف كانت قصتهم معجزة لنبى زمانهم .

وإذا ورد أحاديث فى هذا الشأن فإن كان أحاد ردوه وإن كان متواتراً أولوه وسوف نناقش هذه الآراء والأدلة تفصيلاً .

شبهة المعتزلة على إنكار الكرامة :

الشبهة الأولى :

وهى العمده عندهم أن ظهور الخوارق للعادة جعله الله دليلاً على النبوة فلو حصل لغير نبى لبطلت هذه الأدلة لأن حصول الدليل مع عدم المدلول يقدح فى كونه دليلاً وهذا باطل (١) .

الرد على هذه الشبهة :

إن هناك فرقاً بين المعجزة والكرامة فهما وإن إتفقا فى كونهما أمراً خارقاً للعادة ، وأن هذا الأمر من فعل الله الا إنهما يفترقان فى :

١- دعوى النبوة : فإن المعجزة مقترنة بدعوى النبى للنبوة ، أما الكرامة فلا تقترن بذلك بل ولا بدعوى الولاية عند أكثرالمجوزون .

---

(١) انظر – جامع الكرمات الأولياء ج١ ص ٢١ ، المقاصد ج٢ ص ١٥١ ، ص ٢٤٢ ج١٥ من المغنى ، ص ٢٣٤ من الوحى المحمدى .

٢- المقارنة بالتحدى : فالمعجزة لابد وأن تكون مقرونة بالتحدى ، بخلاف الكرامة فإنه لا يتحدى بها .

٣- المعجزة يتعبد بظهورها ويجب على الرسول إشهارها ، والكرامة يتعبد بإخفائها ، وواجب كتمانها لهذا نرى فى أقوالهم ما يشير الى وجوب الكتمان وعدم الفرح بها وإزاعتها . فمنهم من يقول : أنها لعب تلقى للصغار وقيل لأبى يزيد البسطامى فلان يقال : أنه يمر فى ليله الى مكة فقال الشيطان يمر فى لحظة من المشرق الى المغرب فى لعنه الله ، وقيل له أن فلان يمشى على الماء فقال الحيتان فى الماء والطير فى الهواء أعجب من ذلك .

٤- أن الأنبياء كلما زيدت فى معجزاتهم وكثرت يكون أتم لمعانيهم وأثبت لقلوبهم كما كان نبينا - صلى الله عليه وسلم ، وهؤلاء الذين لهم كرامات كلما زيدت فى كراماتهم يكون وجلهم أكثر وخوفهم أشد حذراً من أن يكون ذلك من المكر الخفى .

الشبهة الثانية :

أنها - أى الكرامة - لو ظهرت لكثرت بكثرة الأولياء وخرجت عن كونها خارقة للعادة ، إذ الأولياء كثيرون ، وجواز وقوعها للبعض يجوز وقوعها للكل [1] .

الرد على هذه الشبهة :

١- أن وقوع الكرامة على يد الولى لا يعدو أن يكون إستمراراً لنقض العادة .

٢- أن المطيعين بجانب العاصين قلة كما قال تعالى (وقليل من عبادى الشكور) [2] وقوله (وقليل ما هم)[3] وإذا حصلت القلة فيهم لم يكن .

---

(١) الوحى المحمدى ص ٢٣٤ . (٢) سورة سبأ الآية : ١٣ .

ما يظهر عليهم من الكرامات فى الأوقات النادرة قادحاً فى كونها على خلاف العادة .

٣- أن أهل الإعتدال ممن يثبتون كرامات الأولياء يذهبون الى أن الكرامة ليست شرطاً فى الولاية إذ ربما يكون من لم تظهر على يديه هذه الأمور أكمل وأتم ممن ظهرت على يديه .

٤- أن الصحابة مع كثرتهم وتأكدنا من صلاحهم وأفضليتهم لم تقع مثل هذه الأمور على أيديهم إلا نادراً مع أنهم أفضل عبادة وأكمل إيماناً .

الشبهة الثالثة :

تمسكوا بقوله صلى الله عليه وسلم حكاية عن ربه (لن يتقرب المتقربون الى بمثل ما إفترضت عليهم) وهذا يدل على أن التقرب الى الله بأداء الفرائض أعظم من التقرب اليه بأداء النوافل ، ثم أن المتقرب اليه بأداء الفرائض لا يحصل له شيىء من هذه الكرامات ، فالمتقرب اليه بالنوافل أولى لا يحصل له ذلك [1] .

الرد على هذه الشبهة :

أن المعتزلة - والحق يقال - لا يقدحون فى الكرامة من جهة كونها فعل الله عز وجل وهذا يؤخذ لهم لا عليهم ، وحيث عرفنا ذلك نقول صحيح أن التقرب من الله بالفرائض وحدها أكمل من التقرب اليه بالنوافل .

أما من تقع له مثل هذه الكرامات فلا يكون كذلك إلا إذا كان آتياً بالفرائض والنوافل ، ولا شك أنه يكون حالة أتم من حال من إقتصر على الفرائض فظهر الفرق .

---

(١) ص ٢١ ج١ من جامع الكرمات للنبهانى .

الشبهة الرابعة :

أن وقوع الخوارق على يد الأولياء يخل بعظم قدر الأنبياء ووقعهم فى النفوس لأنهم يشاركونهم فى السبب الذى من أجله يصدق الرسول .

الرد على هذه الشبهة :

١- منع أن وقوع الكرامة يخل بعظم الأنبياء ويحط من شأنهم بل أن ذلك يزيد فى أقدارهم ويرفع من شأنهم إذ نالت أممهم مثل هذه الكرامات ببركة الإقتداء بهم والسير على شريعتهم مما يرغب فى إتباعهم ولهذا نجد أن الكرامات ربما تؤدى الى إسلام كافر أو هداية عاصى وتوبته والكافر حين يسلم إنما يرجع بإسلامه الى ذلك الأستاذ الذى نال تلميذه هذه الدرجة .

٢- إتفق العلماء على أن كل كرامة تحدث فإنما هى أيضاً معجزة لنبى ذلك الولى ولهذا قالوا : الحكمة من كثرة كرامات أولياء الأمة الإسلامية هى إظهار سيادته على سائر الأنبياء بكثرة معجزاته فى حياته وبعد مماته ولكونه خاتم الأنبياء والمرسلين وإستمرار دينه الى قيام الساعة . فالحاجة الى أسباب التصديق به مستمرة ومن هذه الأسباب كرامات أمته الت هى فى الحقيقة من جملة معجزاته زيادة على وجود القرآن سيد المعجزات وزيادة على ظهور ما أخبر به من أشراط الساعة فكان بذلك كأنه موجود بين أمته يشاهدون معجزاته بعد مماته كما كانوا يشاهدونها فى حياته (ليزدادوا ايماناً مع إيمانهم) [١] ويهدى الله من يشاء ممن لم يكونوا مؤمنين .

يقول ابن عربى حول هذا المعنى : " كل كرامة لولى من أمته - وهم

---

(١) سورة الفتح الآية : ٤ .

كثيرون – هى معجزة لـه صلـى اللـه عليـه وسلم وبذلك تتضـاعف معجزاته أضعافاً كثيرة على معجزات الأنبيـاء قبلـه – وهـم كمـا ورد مائة وأربعة وعشرون ألفاً .

وهذا هو السبب فى أن وقوعها على يد الصحابة الكرام أقل مما وقعت على أيدى من بعدهم من الأولياء ، وذلك أن اثبات صحة الدين لزيـادة إيمان المؤمنين وهداية غيرهم حاصل فـى عصرهم بمعجزاتـه صلـى الله عليه وسلم التى كانوا يشاهدونها على يديه فى كل حين [١] .

معنى ذلك أن كرامات الأولياء هى معجزات لأستاذ ذلك التلميذ .

٣- أن هذا الولى لا ينال هذه الكرامة إلا بالسير علـى المنهـج الـذى تركه النبى والإجتهاد فى متابعة سيرته الشريفة .

ولهذا كله كانت الكرامات مما تزيد فى أقدار الأنبياء .

الشبهة الخامسة :

استدلوا بقوله تعالى (عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحـداً إلا مـــن إرتضى مـــن رســول)[٢] فقد خص الرسـول ممـن بيـن المرتضيـن للإطلاع على الغيب فلا يطلع غيرهم عليه وإن كانوا من الأولياء .

وما يشاهد من الكهنة القاء الجن والشياطين والمنجمين ظنون ربما تقع وربما لا تقع وهى ليست من إطلاع الله تعالى [٣] .

الرد على هذه الشبهة :

إن الذى تدل عليه الآية أن قوله (على غيبة) ليس فيـه عمـوم فيكفـى فى العمل بمقتضاه أن لا يظهر تعالى خلقه على غيب واحد من غيوبـه وذلك مثل وقت وقوع القيامة فيكون المراد من الاية أنه تعالى لا

---

(١) الفتوحات المكية من كتاب النبهانى ص ٣٧ ج١ .

(٢) سورة الجن الآية : ٢٦-٢٧ . (٣ انظر الكشاف للزمخشرى .

يظهر هذا الغيب لأحد فلا يبقى فى الآية دلالة على أنه لا يظهر شيئاً من الغيوب لأحد .

والذى يؤكد هذا التأويل إنما ذكر هذه الآية عقب قوله تعالى (وأن أدرى ما توعدون أن يجعل له ربى أمداً) أى لا أدرى وقت وقوع القيامة ، ثم قال بعده : علام الغيب فلا يظهر على غيبه أحد أى وقت وقوع القيامة.من الغيب الذى لا يظهره الله لأحد إلا من إرتضى من رسول .

فإن قيل : فإذا حملتم ذلك على القيامة فكيف قال إلا من إرتضى من رسول مع مع أنه لا يظهر هذا الغيب لأحد من رسله .

قلنا : بل يظهره عند القرب من إقامة القيامة وكيف لا وقد قال (ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا)[١] .

ولا شك أن الملائكة يعلمون فى ذلك الوقت قيام الساعة [٢] .

ولا أدرى ما السر فى أن يقصر الإمام الرازى تفسير الآية على الملائكة مع أن الله لم يحدد فى الآية أن الرسل من جنس الملائكة .

وما المانع أن يكون المراد من ارتضى من البشر أيضاً خاصة وأن رسول الله صل الله عليه وسلم أطلعه الله على علامات القيامة الصغرى والكبرى .

حيث ورد أن من علامات القيامة طلوع الشمس من مغربها وكذا خروج الدابة والمسيخ الدجال . . . اليس هذا من إظهار الله لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأما تحديدها فلا يعلمه إلا الله (علمها عند الله) فليس مراد الله من هذه الآية أن لا يطلع أحداً على شيء من المغيبات إلا الرسل .

---

(١) سورة الفرقان الآية : ٢٥ . (٢) مفاتيح الغيب جـ١٥ ص ٧٨٨ .

الشبهة الخامسة :

إنهم تمسكوا بقوله تعالى (وتحمل أثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس) [١] بأن الولى ينتقل من بلد الى بلد بعيد لا على هذا الوجه طعن فى هذه الآية ، وأيضاً فإن محمداً صلى الله عليه وسلم لم يصل من مكة الى المدينة إلا فى أيام كثيرة مع التعب الشديد ، فكيف يعقل أن يقال : أن الولى ينتقل من بلده الى الحج فى يوم واحد[٢] .

الرد على هذه الشبهة :

١- قوله تعالى (وتحمل أثقالكم الى بلد . . الآية) محمول على المعهود المتعارف وكرامات الأولياء أحوال نادرة ، فتصير كالمستثناة من هذا العموم .

٢- الرسول صلى الله عليه وسلم هاجر من مكة الى المدينة فى أيام كثيره مع التعب الشديد ليبين للأمة أهمية إتخاذ الأسباب قدر الإمكان مع أنه من المقرر أن الله يقدرعلى نقله من مكة الى المدينه فى طرفة عين .

٣- كنتم تحتجون بالهجرة فلما غفلتم عن الإسراء والمعراج مع أن المسافة أبعد .

الشبهة السادسه:

لو كانت الخوارق تظهر على الصالحين لكانت بأن تظهر على السلف الصالح من كبار الصحابة أولى ، وقد ثبت بتواتر الأخبار أنها لم تظهر عليهم [٣] .

---

(١)سورة النحل الآية : ٧

(٢) النبهانى ج١ ص ٢٢ .

(٣) المغنى للقاضى عبد الجبار ج١٥ ص ٢٤١ .

الرد على هذه الشبهة :

١- السبب فى قلة الكرامات فى زمن الصحابة قياساً علـى مـن بعدهم كما يقول السبكى رواية عن أحمد بن حمبل حيث سئل فـى ذلك : أولئك كان إيمـانهم قويـاً فمـا إحتـاجوا الـى زيـادة يقـوى بهـا إيمـانهم ، وغيرهم ضعيفـى الإيمـان فـى عصـره فـأحتيج الــى تقويتــه بإظهــار الكرامة .

٢- ما ورد فى الكتب الصحيحة الثابتة من وقوع هـذه الخـوارق علـى يد الصحابـة . فقد أخرج البخـارى فـى التـاريخ عـن حمـزة الأسلمى رضى الله عنه قال (كنا مـع النبـى صلـى اللـه عليـه وسلم فـى سفر فتفرقنا فى ليلـة ظلمـاء فأضـائت أصـابعى حتـى جمعـوا عليهـا " علـى ضوئها " ظهرهم وما هلك منهم وأن أصابعى لتنير) وغير ذلـك مـن الروايات الصحيحة فالقول بأنه لم يرد تحكم من المعتزلة .

٣- القوم لم يجعلوا الكرامة شرط الولاية وقد قلنا أنهم قالوا إن من لـم تقع على يديه ربما يكون أتم وأكمل ممن وقعـت علـى يديـه فالصحابـة أكمل الناس إيماناً ولم يقع علـى يـد أغلبهـم هـذه الخـوارق وإن وقعت فلحكمة كما حدث لعمر وهو على المنبر .

الشبهة السابعة :

لو جازت الكرامة كما زعمتم لكان أولى بأن يظهر المعجز على أمير المؤمنين فى حال منازعة غيره له كمعاوية وغيره لأنه كان أقوى فـى إزالة الشبهة وفى استغناء عن التحكيم الذى نتج من خـلاف الخـوارج ما نتج ، وفقد ذلك من أول الدلالة على أن الأمر لا حقيقـة لــه [١] .

الرد على هذه الشبهة :

١- الكرامة - كما قلنا - أمر خارق للعادة والحرب أمر عادى تحتـاج الـى إتخـاذ الأسـباب وإعـداد العـدة مـن قـوة ومـن ربــاط الخيـل .

---

(١) المغنى ج١٥ ص ٢٤١ .

٢- س الرسول وهو صاحب المعجزات أولـى بـأن يهلك اللـه أعدائـه من غير حرب ولا دماء فلماذا تركه الله يتخذ الأسباب ويضع الخطـط الحربية إن الله يريد منا أن نستعمل الأسباب قدر الطاقة .

٣- كان الأمر كما تزعمون ولابد من خارق لإزالة الشبهة كان الأولى على الله أن يدفع القتل عن أنبيائه بمعجزة من المعجزات .

من كل ما تقدم يظهر لنا أن المعتزلة ينكرون وقوع الكرامـة ويدعـون أنها لم تقع ، وكذا ينكرون السحر وغيره من خوارق العادات إلا أنهـم يثبتون المعجزة وهم لم يفعلوا ذلك إلا حفاظاً - مـن وجهـة نظرهـم - على أقدار الأنبياء وجلال المعجزة .

ونظراً لذلك فيجب أن لا نكفرهم ولا نحاول التشهير بهم ولا نقول كما قال صاحب المقاصد .

وإنكارها ليس بعجيب من أهل البدع والأهواء إذ لم يشاهدوا ذلـك مـن أنفسهم قط ولم يسمعوا به من رؤسائهم الذى يزعمون أنهم على شيىء من أمور العبادة فوقعـوا فـى أوليـاء اللـه أصحـاب الكرامـات يمزقـون أديمهم ويمضغون لحومهم .

والحق أن المعتزلة مع خلافنا معهم فى هذه المسألة إلا أنهـم لـم يقعـوا فى أولياء الله ولا مزقوا لحومهم كما قال التفتازانى .

وكون رؤساؤهم لم يقع ذلك الأمر منهم لا يعنى عدم صلاحهم كما قلنا إذ الخارق ليس شرطاً فى الولاية .

وكان رؤساء القوم من المعتزلة أصحاب علم ، ويكفى أن ابـن عربـى جعل العلم كرامة وحده .

٢- موقف ابن حزم الظاهرى :

المتأمل لموقف ابن حزم من هذه المسألة يجد أنه يقف مع المعتزلة فى صف واحد فهو ينكر الكرامة بناءاً على أنها لو جازت لما أمكن لنا التفريق بين النبى وغيره ، لأن الأمر الخارق للعادة هو الدليل الوحيد على صدق النبى فى دعواه (١) .

ويمكن أن نوجز موقف ابن حزم فى عدة نقاط :

١- أنه لا يجوز ظهور أمر خارق للعادة إلا للأنبياء والرسل والولى مهما علت منزلته وإرتفع شأنه لا يمكن أن يقلب له الحقائق .

٢- أن السحر - وكذا الكرامة - لا يكون قلباً للحقائق لأن الساحر مهما كان ماهراً فى سحره فلا يمكن له قلب الحقائق أبداً .

ونحن نتفق معه فى أن السحر ليس قلبا للحقائق بل هو قائم على التخييل فقط لهذا يقول الله عن مدى تأثير سحرة فرعون (يخيل اليهم من سحرهم أنها تسعى) فتأثير السحر اذا محله العين فقط (سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم)(٢) .

ونختلف معه فى تسويته الكرامة بالسحر : إذ الكرامة تختلف عن السحر حيث قد علمنا أن الساحر يختلف عن الولى من جهات عدة .

٣- يذهب ابن حزم الى أن ما وقع لمريم من خوارق وحكاه القرآن الكريم إنما ذلك لأنها كانت نبية ذلك أنه يجوز أن تكون النبوة فى النساء ذلك أن القرآن حكى عن أن الوحى كان ينزل على النساء .

فما حدث لمريم إذاً لم يكن كرامة ولكنه كان معجزة من معجزات الأنبياء فالسيدة مريم كانت نبية وأم موسى كانت نبية ، وآسية امرأة فرعون كانت نبية لأن كلاً منهن أوحى اليها (٣).

---

(١) الفصل فى الملل والنحل ج٥ ص ٧٩ . (٢) نفس المصدر ج٥ ص ٧١ .
(٣) نفس المصدر ج٥ ص ٧٨ .

ونحن نرد عليه ونقول : إذا كان الوحى لا يكون إلا للأنبياء فالملائكة على هذا أنبياء (إذ يوحى ربك الى الملائكة أنى معكم) [١] .

والأرض كذلك (يومئذ تحدث أخبارها بأن ربك أوحى لها)[٢] .

وكون ابن حزم يساوى بين الوحى والنبوة فهو يخلط بين التعريف اللغوى والتعريف الإصطلاحى .

يقول ابن حزم : الوحى ليس من باب الإلهام ، ولا الظن والتوهم . فالوحى الذى هو النبوة قصد من الله تعالى الى اعلام من يوحى اليه بما يعلمه به . . . وقد جاء القرآن بأن الله عز وجل أرسل ملائكة الى نساء فأخبروهن بوحى حق من الله – مثل خطاب الملائكة لأم اسحاق ، ولا يكون هذا الخطاب من ملك لغير نبى بوجه من الوجوه ، وكذا خطاب الملك لمريم فهذه نبوة صحيحة بوحى صحيح ورسالة من الله اليها [٣] .

وابن حزم حين يفعل ذلك ويقول بنبوة النساء فذلك لكى يتخلص من أدلة المثبتين للكرامة والتى وردت فى القرآن ، ولو أجاب مثل ما أجابت به المعتزلة فى قولهم أن ما حدث لمريم معجزة لعيسى كان أولى .

٤- يحاول ابن حزم الرد على ما ورد فى حديث صحيح فى قصة الثلاثة الذين كانوا فى الغار بقوله " أن الأمر ليس خارقاً للعادة فى كون الصخرة تنفرج ثلثاً ثلثاً بعد دعوة كل واحد منهم ".

(لأن تكسير الصخرة ممكن فى كل وقت ولكل أحد بلا إعجاز ، وما كان هكذا فجائز وقوعه بالدعاء وبغير الدعاء لكن وقع وفاقاً لتمنيه لمن دعى فى موت عدوه أو تفريج همه أو بلوغ أمنياته فى دنياه).

---

(١) سورة الأنفال الآية : ١٢ .   (٢) سورة الزلزلة الآية : ٤ .

(٣) المصدر نفسه ص ٧٩ ج٥

وليت شعرى ما الفرق بين الكرامة وبين ما يقوله ابن حزم وإنه ليخيل لى أن ابن حزم ظن أن الكرامة من عمل العبد وقدرته لهذا أنكرها وإلا فلو أنه فهم أن الكرامة هى أمر من الله يفعله تكريماً لوليه تفريجاً له من ضيق وقع فيه أو دعاء دعاه لما ذهب هذا المذهب .

ثم يدلل ابن حزم على أن ما وقع لأصحاب الغار لم يكن إلا أمراً عادياً فيقول " ولقد حدثنى حكم بن منذر بن سعيد أن أباه رحمه الله كان فى جماعة فى سفره فى صحراء فعطشوا وأيقنوا بالهلكة ونزلوا فى ظل جبل ينتظرون الموت قال : فأسندت برأسى على حجر ناتىء فتأذيت منه فقلعته فإندفع الماء العذب من تحته فشربنا وتزودنا " .

وإنى لأتساءل هل هذه الحادثة تنفى وقوع الكرامة وهل من المعتاد أن الذى ينتظر الموت يقلع صخراً ، فإن كانت هذه الصخرة كبيرة كان الخارق وإن كانت صغيرة فلماذا لم يندفع الماء قبل ذلك ، ثم أن الولى ربما تقع الأمور الخارقة على يديه ولا يدرى أنه خارق ، كما حدث لعمر بن الخطاب فى مسألة سارية .

٥- يرد ابن حزم على إستدلال المجوزين للكرامة يقول الله (إدعونى أستجب لكم) وقوله (أجيب دعوة الداع إذا دعان) يجيب بقوله " أنه فى الممكنات التى علم الله أنها تكون لا فيما فى علم الله أنها لا تكون ولا فى المحال " ثم يقول " نسأل المجوزين للكرامة عمن دعا الى الله فى أن يجعله نبياً أو أن ينسخ دين الإسلام أو أن يدخل الكفار الجنة أو المؤمنين النار .

ولا شك أن ابن حزم فى هذا يقدم الدليل على أنه يخلط بين الكرامة وغيرها من السحر والشعوذة .

ذلك أن الكرامة لا تنال إلا ببركة الإقتداء بالنبى صلى الله عليه وسلم وإتباع أوامره وإجتناب نواهيه بخلاف السحر والشعوذة .

وأما قوله : أن قبول الدعاء فى الممكنات فهل قال أحد أن الكرامة من المستحيلات وإذا كانت من المستحيلات فلينكر المعجزة أيضاً لأنها قلب حقائق ، وقد أقر الرجل بقدرة الله على قلب الحقائق ، وهل يقع فى ملك الله إلا ما كان مقدوراً له .

٦- يستشهد ابن حزم على إنكاره للكرامة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأسامة بن زيد وخالد بن الوليد هلا شققت عن قلبهم فلو جاز ظهور المعجزة على يد غير النبى على سبيل الكرامة لوجب القطع على ما فى قلبه وأنه ولى الله وهذا لا يعلم من أحد .

ويمكن الرد على ذلك بأن العادة أن لا يطلع أحد على مافى قلوب الناس لكن الكرامة أمر خارق لهذه العادة .

ألم يعلم الرسول صلى الله عليه وسلم حزيفة بن اليمانى صفات المنافقين ثم ألم يطلع الله رسوله على ما فى قلوب بعض المنافقين ، ألم يطلع الله رسوله على أمور غائبة عنه فى كثير من الأحيان .

ثم ألم يقل ابن حزم نفسه فى كتابه أن من أنواع الرؤيا (منها من يريه الله عز وجل نفس الحالم إذا صفت من أكدار الحسد وتخلصت من الأفكار الفاسدة فيشرف الله به على كثير من الغيبياتالتى لم تأتى بعد وعلى قدر تفاضل الناس فى النقاء والصفاء يكون تفاضل ما يراه فى الصدق ، وقد جاء عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه لم يبقى بعده من النبوة إلا المبشرات وهى الرؤيا الصالحة يراها الرجل أو ترى له [(١)] .

هذا هو موقف ابن حزم ينكر الخوارق لغير الأنبياء ، ويقول بنبوة

---

(١)الفصل جـ٥ ص ٨٩ .

النساء فـي الوقت نفسـه يقر بمـا ورد مـن الرؤيـا الصـالحـة التـي قـد يشرف الله عليها بكثير من الغيبيات .

وهو موقف يتسم بالغرابـة وعدم الوضـوح حيث يستدل علـى إنكـار الكرامة بما يفيد وقوع الكرامة كما مر .

٣- موقف الفلاسفة من الكرامة :

يذهب الدكتور حمودة غرابة إلى أن الفلاسفة ينكرون وقوع الكرامـات قائلاً : " فإبن سينا شيخ الفلاسفة حاول أن يفسر الكرامة تفسيراً فلسـفياً وضرب أمثلة لما يحدث للولى مـن القدرة علـى الإمسـاك عن الطعـام أياماً طوالاً وما يحدث على يد الولى من إجابة دعاء ونحو ذلـك " ورد بعض هذه الكرامات الى أسباب طبيعية وطبية وبايولوجية وأنهى بحثـه بقوله (فإن بلغك شيىء من ذلك " يعنى من كرامات الأوليـاء " فتوقـف ولا تعجل فإن الأمثال هذه أسباباً فى أسرار الطبيعة) [١] .

والمتأمل لكلام بن سينا لا يشم منه رائحة الإنكار ، اللهم إلا أنه يطلـب التمهل فى الحكم على كون هذا الشيىء خارقاً للعادة مـن عدمـه فربمـا يظن أن هذا الأمر خارقاً وهو ليس كذلك .

كما أن ابن سينا فى آرائه حول التصوف والولايةبصفة عامـة لا ينكـر اكرام الله لأوليائه .فالرجل يحكى عن نفسه أنـه كلمـا تعـذر عليـه فهـم نص أو تحير فى مسألة تردد الـى المسـجد وصلـى وابتهـل الـى مبـدع الكون حتى يفتح له المغلق والمتعسر [٢] .

كمـا أن مـن مؤلفاتـه مـا ينفـى إنكـاره للكرامـة حيث نجـد مـن مؤلفاتـه (رسالة فى العلم اللدنى ، ورسالة فى الزهد ، ورسالة فى إجابة

---

(١)الاشـارات والتنبيهـات جـ٢ ص ١٣٩ ، القشـيرى واثـاره للدكتـور / حمـوده غرابه ص ٣٢٠ . (٢) تاريخ الفلسفة العربية ص ٢٠٤ جميل سليبا .

الدعاء ، ورسالة فى مخاطبة الأرواح بعد مفارقة الأشباح) .
وكتابه الإشارات وهو يذكر فيه الفرق بين العابد والزاهد والصوفى .
كل ذلك يرجح أن الرجل لم ينكر الكرامة باطلاقها وإنما فقط يأمر بالتمهل فى الحكم عليها .
وقد اكتفيت بذكر النموزج السينوى ممثلا للفكر الفلسفى فى هذا الأمر لأن ابن سينا من أكثر من تحدثوا – من الفلاسفة – حول هذا الأمر .

ثانياً : موقف المؤيدين من الكرامة

١– موقف السلف من الكرامة :

مذهب السلف فى مسألة الكرامة لا يبعد كثيراًعن موقف المنصفين من الأشاعرة وأهل السنة عموماً ولا عن موقف المعتدلين من أهل التصوف ، فالسلف يرى أنه ليس كل أمر خارق عن العادة يعد كرامة ، بل ربما تكون هذه الآيات خوارق شيطانية .
وقد وضح ابن تيمية هذا الأمر أثناء حديثه عن مخاريق الصوفية الذين يخلطون بين الكرامات والسحر والشعوذة والكهانة .
فيرد على هؤلاء ويبين لنا فى أسلوب رائع طبيعة هذه الكرامات عند هؤلاء بأنها خوارق شيطانية وليست كرامات ربانية ، وهى خوارق تنزل بها الشياطين على كل كذاب أثيم بعيد عن منهج الله .
فإن الكرامات عند ابن تيمية لا تكون إلا لأولياء الله الصالحين المتبعين لمنهج رسول الله – يقول ابن تيمية :
" ومن الشرك أن يدعو العبد غير الله كمن يستغيث فى المخاوف والأمراض بالأموات والغائبين فيقول : يا سيدى الشيخ فلان فيستغيث به وهؤلاء المشركون قد يتمثل لأحدهم صورة الشيخ الذى استغاث به فيظن أنه الشيخ أو ملك جاء على صورته ، وإنما هو شيطان تمثل له

ويغويه لما دعا غير الله " ثم يقول " فهؤلاء المبتدعون المخالفون للكتاب والسنة وأحوالهم ليست من كرامات الصالحين ' .

فإن الكرامات إنما تكون لأولياء الله المتقين الذين قال الله فيهم (ألا أن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون * الذين آمنوا وكانوا يتقون * لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ......) .

وهم الذين يتقربون الى الله بالفرائض ثم النوافل كما روى البخارى وما تقرب الى عبد بمثل ما افترضته عليه ، لا يزال عبدى يتقرب الى بالنوافل بعد الفرائض حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها ، فبى يسمع وبى يبصر وبى يبطش وبى يمشى ولإن سألنى لأعطينه . . . الحديث [1] .

وقال الشافعى : لو رأيتم صاحب بدعة يطير فى الهواء فلا تغتروا به [2] .

معنى ذلك أن السلف يرون أنه لا يجوز لنا أن نحكم على من تظهر على يديه الخوارق بأنها كرامة الا أن يكون تقياً متبعاً لمنهج رسول الله صلى الله عليه وسلم حينئذ إن ظهر الخارق كان كرامة ربانية من عند الله .

وهذه نظرة اسلامية تتفق مع ما نادى به عقلاء أهل السنة والجماعة ، وأهل التصوف السنى القائم على الكتاب والسنة .

٢- موقف الأشاعرة من الكرامة

إتفق الاشاعرة على جواز الكرامة إلا ابو اسحاق الاسفراييني الذى يقول : " المعجزات دلالات صدق الأنبياء ، ودليل النبوة لا يوجد مع

---

(١) رواه البخارى فى كتاب الرقاق باب ٣٨ .

(٢) ابن تيمية مجموع الفتاوى الكبرى ج١٠ ص ٦٦٣

غير النبى كما أن العقل تحكم أن العلم لما كان دليلاً للعالم فى كونه عالماً لم يوجد ممن لا يكون عالماً (١) .

وقد رد العلماء على هذه الشبهة كما تقدم ببيان الفروق بين الكرامة والمعجزة .

وممن رد على هذه الشبهة الإمام الفخر الرازة حين قال : والجواب من وجوه :

الأول :أن ظهور الفعل الخارق للعادة دليل على صدق المدعى فإن إدعى صاحبها النبوة فذاك الفعل الخارق للعادة يدل على كونه نبياً ، وإن إدعى الولاية يدل على كونه ولياً .

الثانى : قال بعضهم الأنبياء مأمورون بإظهارها ، والأولياء مأمورون بإخفائها .

الثالث : أن النبى يدعى المعجزة ويقطع به ، والولى لا يمكنه أن يقطع به .

الرابع : المعجزة يجب انفكاكها عن المعارضة والكرامة لا يجب انفكاكها عن المعارضة (٢).

وعند التأمل فى كلام أبى اسحاق الاسفراييني يظهر لنا أن هذا الرجل لا ينكر الكرامة بإطلاقها بل أنه لا يمنع أن يستجيب الله لبعض أوليائه حين يقول : " الأولياء لهم كرامات شبه اجابة الدعاء ، فاما جنس ما هو معجزة للأنبياء فلا " (٣) .

ونحن نتساءل إذا كان الاسفراييني يقر بأن الله يستجيب للولى دعاءه فكيف ينكر إذاً أن يكرم الله أولياءه ، ويخرق العادة لهم خاصة وإجابة الدعاء أحد أنواع الكرامات .

---

(١)الرسالة القشيرية جـ٢ ص ٦٦٠ . (٢) مفاتيح الغيب ج٤ ص ١٩١.
(٣) الرسالة ج٢ ص ٦٦٠ ، المحصل ص ٢٢١ .

فأصحاب الغار الذين ذكرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حديث دعوا الله فأنجاهم الله بإزاحة الصخرة عن فم الغار ، فهذا اكرام من الله لهم حيث أجاب دعاءهم .

وأما غير الاسفراييني فقد اتفقت كلمة الأشاعرى على جواز الكرامة فالإمام الأشعرى يذهب الى القول بجواز الكرامة ، وكذا أمام الحرمين الجوينى ، والقاضى الباقلانى ، والإمام أبو بكر بن فورك الذى يقول : " المعجزات دلالات صدق الأنبياء ، والكرامات إنْ أشار صاحبها الى الولاية دلت على صدقه فى حاله " .

وكان رحمه الله يقول : من الفرق بين المعجزات والكرامات أن الأنبياء مأمورون بإظهارها والولى يجب عليه سترها ، والنبى صلى الله عليه وسلم يدعى ذلك ويقطع القول به ، والولى لا يدعيها ولا يقطع بها لجواز أن تكون مكرا [1].

وكذا يقول بالكرامة وجواز وقوعها الإمام الغزالى ، والرازى ، والأمدى ، والشهرستانى ، والايجى ، والتفتازانى ، وغبرهم .

معنى ذلك أن الأشاعرة قد أجمعوا – عدا الاسفراييني – على القول بجواز الكرامة واشتهر ذلك عنهم حتى صار وكأنه من علامات المذهب ذلك أنهم يتفقون مع الصوفية فى هذا المجال ، ولهذا نرى الرازى فى حديثه عن الكرامة يقول اتفق أصحابنا – أى الأشاعرة – على جوازها وأنكرها المعتزلة إلا ابو الحسن البصرى وصاحبه محمود الخوازمى [2] .

---

(١) نقلا عن الرسالة القشيرية ج٢ ص ٦٦١ .

(٢) مفاتيح الغيب ج١٠ ص ٢٥٠ .

وقد قلنا أن الرازى وكذا البغدادى ومعهم الآمدى والشهرستانى حـاولوا – بعد تعريف الكرامة – التدليل على وقوع الكرامة بأدلة عقلية ونقليـة فالإمام الرازى يذكر أدلة عقليـة علـى جواز الكرامـة ثـم يذكـر الأدلـة النقلية من الكتاب والسنة ، وكذا مما ورد من آثار صحيحة عن وقـوع خوارق على أيدى بعض الصحابة فى حياة النبى وبعد وفاته .

ولقد أقام صاحب المقاصد دليلا على إمكان الكرامة ، وأنهـا كـالمعجزة أمر ممكن فى نفسه .

ولـم يكتـف علمـاء الأشـاعرة بـايراد الأدلـة علـى صحـة القـول بوقـوع الكرامة بل حاولوا ابطال الشبه التى تمسك بها المنكـرون للكرامـة مـن المعتزلة وغيرهم .

غير أن الأشاعرة مع اتفاقهم على جواز الكرامة قد إختلفوا بعـد ذلـك فى هلى يجوز أن يدعى الولى الكرامة فتحصل على وفق دعـواه أم لا ؟ وهل الكرامة تكون من جنس المعجزة أم لا ؟

وقد قال التفتـازانى أن الراجـح مـن ذلـك جـواز مطلـق الكرامـة سـواء ادعى الولى الولاية أم لا ، كما أنها تجوز أن تكون من جنـس مـا وقـع للأنبياء ، ثم استثنى من ذلك ما ورد به النص من عدم اتيانه أحد بمثلـه كالقرآن الكريم .

ولا شك أن صاحب المقاصد ينقل هذا الرآى عن الإمام الرازى .

ونحن نرى من جانبنا أن الأمر هنا يخلو من مبالغة .

ذلك أن الولى كيف يدعى الولاية لنفسه ويدلل على ذلك فى دعواه فـى الولاية بهذا الأمر الخارق للعادة .

الم يقل المنصفون من مجوزى الكرامات أن الفرح بالكرامة هـى فـرح بغير الله لأن الكرامة دون الله .

ألم يرد عن الصحابة أنهم لـم يقروا لأنفسـهم بالولايـة مـع أن صـاحب الشرع أخبر عن أنهم أفضـل النـاس إيمانـاً ومـع ذلـك كثيراً مـا كـانوا يتهمون أنفسهم بالتقصير فى جانب الله فأبو بكر يقول : " لا آمن مكـر الله ولو كانت احدى قدماى فى الجنة " وعمر يقول : " لو نـادى منـاد كل الناس يدخلون الجنة الا واحد لظننت انه أنا " وحنظلة يقول " نـافق حنظلة " فكيف يتفق هذا مع دعوى الولاية .

كما أن العقلاء ممن كان يقع على أيديهم الأمر الخارق ، كانوا يعدونـه فى دائرة الإستدراج حتى يدوم خوفه .

ثم أن المحققيـن منهـم كـانوا يقولـون : أن الأوليـاء يسـتترون مـن الكرامةكما تستتر المرأة من دم الحيض [1] .

معنى ذلك أن ظهور الأمر الخارق للعادة موافق لدعوى الولايـة أمـر يصعب التصديق به .

اللهم الاإذا إضطر الولى لإظهار ذلك حتى لا يظن به السوء كما فعلت السيدة مريم البتول حين سئلت (أنـى لـك هـذا) قـالت (هـو مـن عنـد الله) أما أن يدعى هو الولايـة كـى يشـهد النـاس بولايتـه فهـذا ممـا لا يمكن تصديقه .

وأما كون الكرامة من جنس معجزة النبى فهذا أيضـاً يصعـب تصديقـه على إطلاقه .

ونحن حين نقول ذلك لا ننظر الى الموضوع من زاوية قدرة اللـه عـز وجل فقد سبق وأن قلنا أن الله قادر على كل شيىء والخوارق ممكنة ، لكن هناك معجزات هى فى ذاتها تحدى وأيضـاً تكريـم وتشـريف لذلـك النبـى فيمتنـع وقوعهـا لغـيره فمعجـزة الإسـراء والمعـراج مثـلاً :

---

(١) ذكره السيد سابق عن الشيخ أحمد الرفاعى . العقائد الاسلامية ص ٢١٥ .

يمتنعوقوعها لغير النبى ممد صلى الله عليه وسلم مع امكانها فى جانب قدرة الله ، لكن من غير اللائق أن يكون مثل هـذا الأمـر لغيره صلـى الله عليه وسلم .

وإن إعترض أحمد ممن قال بجواز أن تكون الكرامات من جنس ما وقع للأنبياء بدعوى أنها أيضاً تكون من باب التكريم لذلك الولى .

قلنا : إن كان ولياً حقاً أحس فى نفسه أن حدوثها – الإسراء والمعراج لاستاذ هو تكريم له أيضاً وأعتقد أن الولى يستحى أن يسأل الله مثل هذا الأمر .

وقال القشيرى : يقول أبو على الدقاق : لقد جاء لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالإسراء والمعراج على التحقيق فى الصلاة فكما أن الإسراء والمعراج كان على ثلاث مراحل (من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى ومن المسجد الأقصى الى السماء السابعة ومن السماء السابعة الى ما فوق سدرة المنتهى) كذلك الصلاة قيام وركوع وسجود ، قال تعالى (واسجد واقترب) [1] .

معنى ذلك أنه ليس كل ما يقع لنبى يجوز وقوعه للولى .

وحين قال المنكرون للمعجزة لو جازت لجاز أن ينقلب البحر وهناً والجبل ذهبا والمدعى للنبوة شخصا آخر ، قال العلماء : أن هذه الأمور جائزة عقلا ممتنعة الوقوع عادة .

فكذلك يجوزفى جانب قدرة الله عز وجل أن تقع الكرامة على يد ولى من جنس ما وقع للنبى ولكنها ممتنعة الوقوع بالنظر الى الأولياء فالله قادر مثلاً على أن يدخل الكافرين الجنة ، ويدخل المؤمنين النار لكنه لن يفعل .

---

(١) سورة العلق الآية : ١٩ .

من كل ما تقدم يظهر لنا أنه ليس كل ما وقع معجزة لنبى يجوز أن يقع كرامة لولى .

فمعجزة ميلاد عيسى بن مريم لا يمكن وقوعها الآن وإلا فتحنا على المجتمع باباً يصعب غلقه مع أن الأمر بالنسبة الى الله هين .

ويجب التفريق بين كوننا نمنع وقوع بعض كرامات قد وقعت معجزات لرسول الله وبين رأى ابى اسحاق الاسفراييني القائل بمنع الكرامات التى هى من جنس المعجزة .

ذلك أننا لا ننكر الكرامات وهى الأمور الخارقة للعادة التى يظهرها الله تكريماً لأوليائه .

أما أبو اسحاق الاسفراييني فينكر وقوع الأمر الخارق للعادة على يد أحد غير الأنبياء [١] .

٣- موقف الصوفية من كرامة الأولياء

لسنا بحاجة الى مزيد ايضاح حول موقف الصوفية من كرامات الأولياء خاصة وأننا الآن نجد فى كثير من الأحيان من يربط الصوفية بكرامات الأولياء .

ونحن فى هذا البحث لم نقف طويلاً عند موقف الصوفية من الكرامة ولا الأدلة التى أوردها الصوفية فى كتاباتهم على جواز الكرامة إنما الذى سوف نهتم به فى هذا البحث هو التطور التاريخى لفكرة الكرامة عن الصوفية من بدايات نشأة التصوف وحتى يومنا هذا الذى اختلطت

---

(١) انظر – مذهب الأشاعرة فى الكرامة : كتاب نهاية الأقدام ص ٤٩٧ العقيدة النظامية ص ٧٠ ، المحصل ص ٢٢١ ، أصول الدين ص ١٧٣ شرح القصائد ص ، الاقتصاد ص ١١٤ غاية المرام ص ٣٣٥ ، الوحى المحمدى ، العقائد الإسلامية ص ٢١٥ .

فيه الأمور ذلك أن الكرامة وصلت فى كتابات المتأخرين الى درجة جعلت رد فعل البعض عنيفاً حتى أن أحد العلماء حين قرأ عن كرامات الصوفية قال : " إن العامة فتحوا للجيلانى – أحد أقطاب التصوف – فى سوق التصنع والمخادعة دكانا فوق كل دكان ، ونسبوا اليه خوارق عادات عجيبات لا يصدقها إلا من كان من جملة البلداء ، ولا يخفى على المسلم العاقل أن مقولة الكرامات حماقة أو جنون[١] .

ولا يخفى أن رد الفعل هذا – رغم تهوره – يخفى وراءه كيف وصل حال الكرامة على يد هؤلاء الصوفية .

بل أن مبالغات المتأخرين فى مسألة الكرامة ، جعلت بعض الباحثين يحاولون المقارنة بينها وبين ما ورد فى كتاب (الف ليلة وليلة) [٢] .

ويمكن لنا من خلال هذا البحث أن نقول أن الكرامة لدى الصوفية قد مرت بمراحل عديد :

المرحلة الأولى : وهى مرحلة ما قبل القرن الرابع الهجرى :

وهده المرحلة كان ذكر الكرامة فيها يكاد يكون معدوماً فى كتابات الصوفية الأوائل ، حيث ركز الصوفية فى هذه المرحلة على مسائل الزهد والورع ومحاسبة النفس وبيان مدارك السالكين . . . الخ ، ولهذا لم نجد فى كتابات الحارث المحاسبى (المتوفى سنة ٢٤٣) ذكراً لمسألة الكرامة ، وكذلك ما ورد من أقوال الحسن البصرى وخلافه .

ذلك أنه فى هذه المرحلة كانوا لايربطون بين الكرامة والولاية فلو لم يكن للولى كرامة لم يقدح ذلك فى ولايته ، وأصحاب هذه الفترة كانوا يذهبون الى أن الإستقامة هى الكرامة .

---

(١) روضات الجنات فى أخبار العلماء السادات ج٥ ص ٥٨ .

(٢) الأستاذ / يوسف زيدان – فى كتابه (الكرمات نص أدبى مضاد للتصوف)

المرحلة الثانية : وهى مرحلة القرن الرابع والخامس الهجرى :

وهذه المرحلة لا تكاد الكرامات تظهر فى كتابات هذه المرحلة إلا نادراً ففى مجال التاريخ لرجال التصوف نجد السلمى فى (طبقات الأولياء) وكذا الأصفهانى فى (حلية الأولياء) لا تظهر الكرامات إلا بشكل عابر دون تركيز .

حيث ركز المؤرخ على ذكر تاريخ الوفاه وموطن الميلاد ومواطن السياحة ثم الكثير من الأقوال المروية عن تلك الشخصية مع ذكر سند الرواية ولم تكن أقوال الصوفى المترجم لـه تخرج عن إطار الحكمة والزهد وتوجيه الآيات القرآنية نحو المضامين الروحية ثم بين التراجم نجد عباره " له التصانيف المشهورة والكرامات الظاهرة " .

وفى مجال موضوعات التصوف نجد أهم كتب فى التصوف الإسلامى فى رسالة القشيرى ولمع السراج وقوت القلوب لأبى طالب المكى والتعرف على مذهب أهل التصوف للكلاباذى .

وهذه الكتب كان جل إهتمامها شرح أحوال ومقامات الصوفية وبيان معنى التصوف وتوضيح مدارك السالكين .

إلا أننا نجد هؤلاء الصوفية يفردون عنواناً مستقلاً فى كتاباتهم عن كرامات الأولياء .

لكن يلاحظ على هذه الفترة انه حين يفردون فصلاً مستقلاً يتحدثون فيه عن كرامات الأولياء فإنما ذلك ليفرقوا بين كرامة الأولياء ومعجزة الأنبياء كما أنهم يحاولون توضيح أنه لو لم يكن للولى كرامة ظاهرة عليه فى الدنيا لم يقدح عدمها فى كونه ولياً [(١)] .

وهكذا لم ينظر الى الكرامة على أنها شرط من شروط الولاية ولا

(١) الرسالة القشيرية ج٢ ص ٦٦٠ ، اللمع ص ٣٩٠ ، التعرف ص ٨٧ .

شرط من شروط التصوف هو المعنى الذى سيظل كبار الصوفية من الأولياء يؤكدونه طيلة تاريخ التصوف الممتد عبر العصور .

المرحلة الثالثة : مرحلة القرن السابع والثامن الهجرى :

حيث صارت الكرامات مبحثاً لا غنا عنه فى كتابات الصوفية كافة ولا نكاد نجد صوفياً واحداً بلا كرامات . بل أن كتب التفسير قد دخلت هذا الميدان كما فعل الفخر الرازى .

بل عمد مؤرخوا الصوفية بعد ذلك الى تراجم الأوائل فوشحوها بالكرامات الباهرة .

المرحلة الرابعة ك وهى مرحلة ما بعد القرن الثامن الهجرى حتى اليوم :

وهذه المرحلة قد تزايد فيها الأمر وأفردت للكرامات كتباً خاصة مستقلة أشهرها كتاب النبهانى (جامع كرامات الأولياء) وكتاب الشطنوفى (بهجه الأسرار ومعدن الأنوار) بالإضافة الى كتب اليافعى والنابلسى وغيرهم .

بل أن الأغرب من ذلك انه صارت لدينا مؤلفات مستقلة تعالج شكلاً معيناً من الكرامات كالقدرة على الإنتقال من مكان الى آخر والوجود فى مكانين فى زمن واحد وهو ما عالجه عبد الغنى النابلسى فى كتابه (المسلك الحلى فى حكم تطور الولى) [١] .

كما أن للنابلسى كتاباً بعنوان (الماء الزلال فى إثبات كرامات الأولياء بعد الإنتقال) [٢] .

---

(١) مخطوط بدار الكتب .

(٢) مخطوط بدار الكتب .

ولا شك أن توسع الصوفية فى مسألة الكرامة ، وجعلها أحد الشروط الأساسية للولاية والتصوف فى خروج خط التصوف الحقيقى الذى رسمه الأوائل .

فمن الناحية التاريخية :

" إختلفت أحوال الأمة بعد القرن السابع الهجرى عما كان سائداً من قبل حيث سقطت بغداد تحت أقدام المغول وانفسح المجال أمام تأسيس كيانات إقليمية مستقلة وهنا حدث نوع من التسابق حول تأكيد هذه الكيانات لذاتها " (١) .

ومن الناحية الإجتماعية :

إتسم التصوف بعد القرن السابع الهجرى بالطابع الجماعى المتمثل فى ظهور الفرق الصوفية وإزداد إقتراب التصوف من العامة والبسطاء وهذا الأمر جعل إحتكاك كبار الصوفية بالعامة وفى هذه الحالة كان من الطبيعى أن تروج أحاديث الكرامات وتتناقلها ألسنة العامة .

ومن الناحية النفسية :

فقد بدأت أحوال الأمة بالتدهور منذ القرن الثامن الهجرى وظلت السنون تنقل المسلمين من سيىء الى أسوأ وكان المسلمون قبل ذلك هم سادة العالم .

وهنا إنفسح المجال لرؤية الواقع من نافذة الحلم الذى تجسده الكرامة ولم يعد المستحيل بعيداً عن متناول اليد العاجزة عن تناول الأشياء فى الواقع فناولتها الكرامة .

والحق أنه بجانب تلك العوامل لا يمكن إغفال عوامل أخرى مثل إختلاط التصوف بالفكر الشيعى ، وكذا خلط الناس بين خوارق العادات

---

(١) بحث عوامل انهيار التصوف الحقيقى ليوسف زيدان ص ٢٢٥ .

التى تظهر على يد ولى وبين السحر والشعوذة وكل ذلك ناشىء عن جهل العامة بقواعد التصوف الحقيقى القائم على الكتاب والسنة .

ولهذا نراهم يتناقلون كرامات لو صحت روايتها لكانت عاملاً من عوامل هدم التصوف من أساسه حيث تعارض ما ورد فى كتاب الله وما صح من حديث للنبى – صلى الله عليه وسلم .

وسوف نذكر فى هذا البحث مثالاً لما ورد من هذه الكرامات (١) والتى عدت أسطورة من الأساطير فوق أنها نص مضاد للتصوف .

فقد أورد النبهانى والشعرانى عن أحد الصوفية حيث يقول :

" نجم الدين الكبرى أحد أئمة الصوفية وأكابر الأولياء ، وسادات الأصفياء من كراماته رضى الله عنه " .

أن ملك المغول لما جاء لخراب بغداد وقف خارج بغداد وقال : إنى أشم فى هذه البلدة رائحة محمدى كبير فإستأذنوه فقال الشيخ نجم الدين : ليدخل يضرب هذه الرقبة ثم يضرب رقبة فلان وفلان ثم ثلثى أهل البلد جف القلم بما هو كائن فكان كما قال .

والنبهانى فى هذا النص يستخدم آليات خاصة لصنع الكرامة :

أولها : **الإستناد الى واقع تاريخى معين ثم التحليق به فى عالم الخيال ذلك أن نجم الدين قد اصطدم بالتتار فعلاً لكن هذا الإصطدام كان شيئاً آخر يختلف تماماً عما ترويه كرامة الشعرانى .**

ثانيها :المفارقة التامة لكل الحتميات والقواعد الراسخة للتصوف والتاريخ ذلك أن التاريخ يقول : أن الشيخ نجم الدين إستشهد سنة ٦١٨ قبل دخول المغول بغداد كما أنه لم يستوطن بغداد أصلاً .

---

(١) لابد من القيام بتحليل شامل لفكرة الكرامة عند الصوفية ، ونقدها نقداً موضوعياً ، وهو ما سوف نقوم به فى بحث مستقل ان شاء الله .

ثالثها : تفريغ الأشخاص من محتواهم الفعلى وإعادة إنتاجهم فى ثوب جديد بحيث يصير عدو الله هولاكو ذلك العنيد الذى مزق أشلاء المسلمين وخرب الديار يصير هذا الكافر شخصاً شفافاً تصل به الشفافية الى حد أنه يشم رائحة محمدى كبير وهو خارج أسوار المدينة .

بل يصل بهولاكو الأدب أنه لا يدخل حتى يستأذن ثم يأذن له صاحب الكرامة وليت شعرى هذه الكرامة لنجم الدين أم لهولاكو .

إن مثل هذه الروايات هى الشرخ الحقيقى فى جدار التصوف وهو السلاح الذى يمسك به أعداء التصوف ليهاجموه به وقد أضرت بالتصوف أكثر من أعدائه أنفسهم ، والأمر محتاج الى تنقيح وتصحيح لتلك المفاهيم المغلوطة ليتبين الخبيث من الطيب .

من كل ما تقدم نرى أن الصوفية يجوزون إكرامات الأولياء ويختلفون بعد ذلك فى تحديد صفة الولى الذى تقع على يديه هذه الكرامة .

والمنصفون منهم يتفقون مع عقلاء المسلمين فى ذلك بينما نجد المتهورين يصلون بالكرامة حداً يصل بهم الى وقوعها لاتفه الأسباب على يد أراذل الناس الأمر الذى حدى بالبعض مهاجمة التصوف من أساسه .

الخاتمة

هذه جولة سريعة حول الكرامة ذكرنا فيها معنى الكرامة لغة واصطلاحاً والدليل على إمكان ووقوع الكرامة سواء كانت أدلة عقلية أم نقلية .

ثم تحدثنا عن الفروق بين الكرامة وبين كل من المعجزة والسحر والإستدراج خاصة وأن أقوى حجة إستند اليها المانعون للكرامة هى أن جواز الكرامة سوف يؤدى الى الإلتباس بين النبى وغيره خاصة وأن الأمر الخارق للعادة هو دليل صدق النبى فى دعوة وأنه هو الذى يفرق بين صدق الرسول من عدمه .

وقد حاولت الرد على ذلك .

كما أن البعض يخلط بين السحر والشعوذة لهذا ذكرت فى هذا البحث الفروق بين الكرامة وبين السحر .

وكان لنا موقف من مسألة السحر حيث تبين أن السحر حقيقة ذكرها القرآن الكريم بخلاف تأثيره فإنه ليس بحقيقة إذ أن تأثيره لا يعدو والتخبيل كما قال الله تعالى (يخيل إليهم من سحرهم أنها تسعى) .

كما ذكرت الفروق بين الكرامة والإستدراج ، وقد تبين لنا أن بعض الأولياء كان يعد الكرامات إستدراجاً من باب التواضع ، كما ذكرت فى نهاية الفصل الأول العلاقة بين الولاية والكرامة .

وفى الفصل الثانى ذكرت مذاهب الإسلاميين فى الكرامة إبتدأته بذكر المعارضين لوقوع الكرامة من الفلاسفة والمعتزلة وكذا الظاهرية ممثلين فى موقف ابن حزم الظاهرى ، وقد تبين لنا أن ابن حزم مضطرب فى موقفه إذ هو فى الوقت الذى ينكر فيه الكرامة يثبت لبعض المخلصين معرفة الغيب عن طريق الرؤيا .

وذكرت موقف المؤيدين من السلف وهم أعدل الفرق فى تأييدهم للكرامة ثم ذكرت موقف الأشاعرة فى الكرامة وقد بان لنا خطأ بعض الشاعرة فى كون الكرامة تكون على وفق الدعوى .

ثم ذكرت أخيراً موقف الصوفية من الكرامة وقد تبين لنا أن بعض الصوفية كان سبباً من أسباب معارضة البعض لكرامات الأولياء كما ذكرت التطور التاريخى لفكرة الكرامة لدى رجال الصوفية .

وفى الختام أرجو الله عز وجل أن يبصرنا بأمور ديننا وأن يكن لنا وإن لم نكن لأنفسنا ، إنه على ما يشاء قدير وبالإجابة جدير وهو نعم المولى ونعم النصير .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

دكتور

عبد العزيز المرشدي

أهم المراجع

	الكتاب	المؤلف	الناشر
١	مفاتيح الغيب	للإمام الفخر الرازى	دار الغد العربى
٢	فتح البارى فى شرح صحيح البخارى	ابن حجر العسقلانى	
٣	الوحى المحمدى	رشيد رضا	ط بيروت.لبنان الطبعة الثالثة
٤	جامع الكرامات الأولياء	للنبهانى	دار الفكر للطباعة والنشر/بيروت
٥	الرسالة القشيري	للقشيرى	دار الكتب الحديثة – القاهرة
٦	اللمع	لأبى نصر السراج	دار الكتب الحديثة – القاهرة
٧	حيلة الأولياء	لأبى نعيم	دار الكتب العلمية/بيروت
٨	التعرف على مذهب أهل التصوف	للكلاباذى	مكتبة الكليات الأزهرية
٩	طبقات الأولياء	للسلمى	
١٠	الإمام القشيرى	إبراهيم بسيونى	مجمع البحوث افسلامية
١١	محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين	للرازى	مكتبة الكليات الأزهرية
١٢	أصول الدين	البغدادى	دار الآفاق الجديد/بيروت
١٣	نهاية الاقدام	الشهرستانى	بدون تاريخ
١٤	غاية المرام	الآمدى	مجمع البحوث الإسلامية
١٥	الفصل فى الملل والنحل	ابن حزم	مكتبة محمد على صبيح/القاهرة
١٦	شرح المقاصد	التفتازانى	دار الطباعة / القاهرة
١٧	المواقف	الإيجى	عالم الكتب/بيروت
١٨	طبقات الشافعية	السبكى	
١٩	المغنى	القاضى عبد الجبار	
٢٠	شرح الأصول الخمسة	القاضى عبد الجبار	مكتبة وهبه
٢١	المقدمة	ابن خلدون	ط مطبعة عبد السلام شقرون
٢٢	الإشارات والتنبيهات	ابن سينا	دار المعارف/القاهرة

رقم الايداع بدار الكتب
٩٧/٦٣٧٣
دار الاسلام للطباعة والنشر